الباب الثالث

سيرة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام

٣,١ ــ اسم خليل الرحمن ونسبه وولادته

٣,٢ ــ واقع الأديان في عهد خليل الرحمن

٣,٢,١ــ ديانة العامة

٣,٢,٢ــ ملّة إبراهيم

٣,٣ ــ صفة خليل الرحمن

٣,٤ ــ مواقف خليل الرحمن

٣,٤,١ــ موقفه مع الطير

٣,٤,٢ــ موقفه مع الملائكة

٣,٤,٣ــ موقفه مع نمرود

٣,٤,٤ــ موقفه مع أبيه وقومه

٣,٤,٥ــ موقفه مع ابنه الذبيح

٣,٥ ــ مهاجرة خليل الرحمن

٣,٦ ــ بناء خليل الرحمن البيت العتيق

٣,٧ ــ وفاة خليل الرحمن

٣,٨ ــ مكانة خليل الرحمن بعد وفاته

٣,٩ ــ أولاد خليل الرحمن

Prince of Songkla University Pattani Campus

جدول (١): شجرة الرسل عليهم الصلاة والسلام

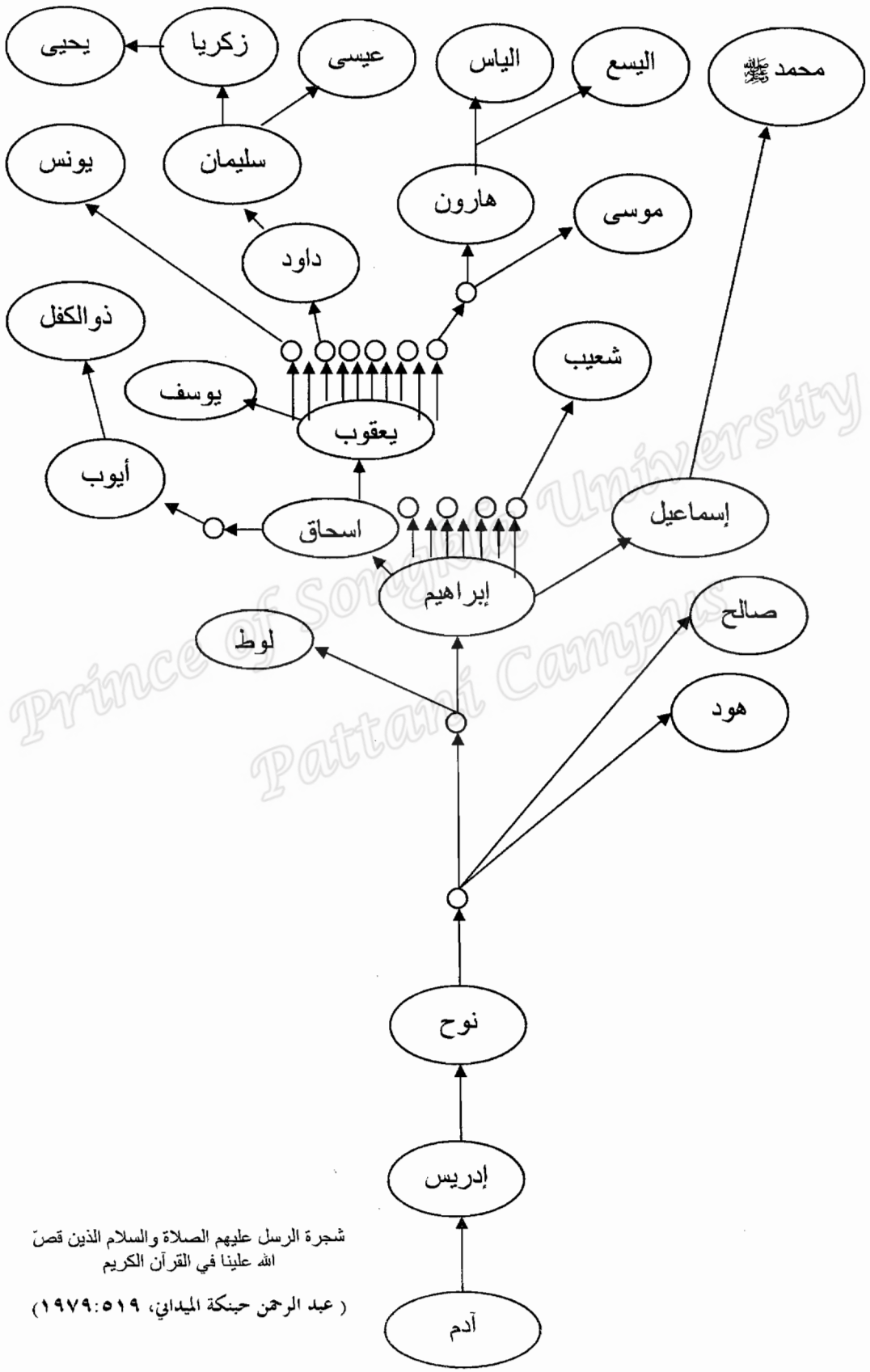

شجرة الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين قصّ الله علينا في القرآن الكريم

(عبد الرحمن حبنكة الميداني، ١٩٧٩:٥١٩)

Prince of Songkla University Pattani Campus

جدول (٢): شجرة نسب خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام

شجرة نسب إبراهيم عليه السلام

(ابن خلدون، ١٩٩٩: ٤٥)

Prince of Songkla University Pattani Campus

جدول (٣): هيكل نسب خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام

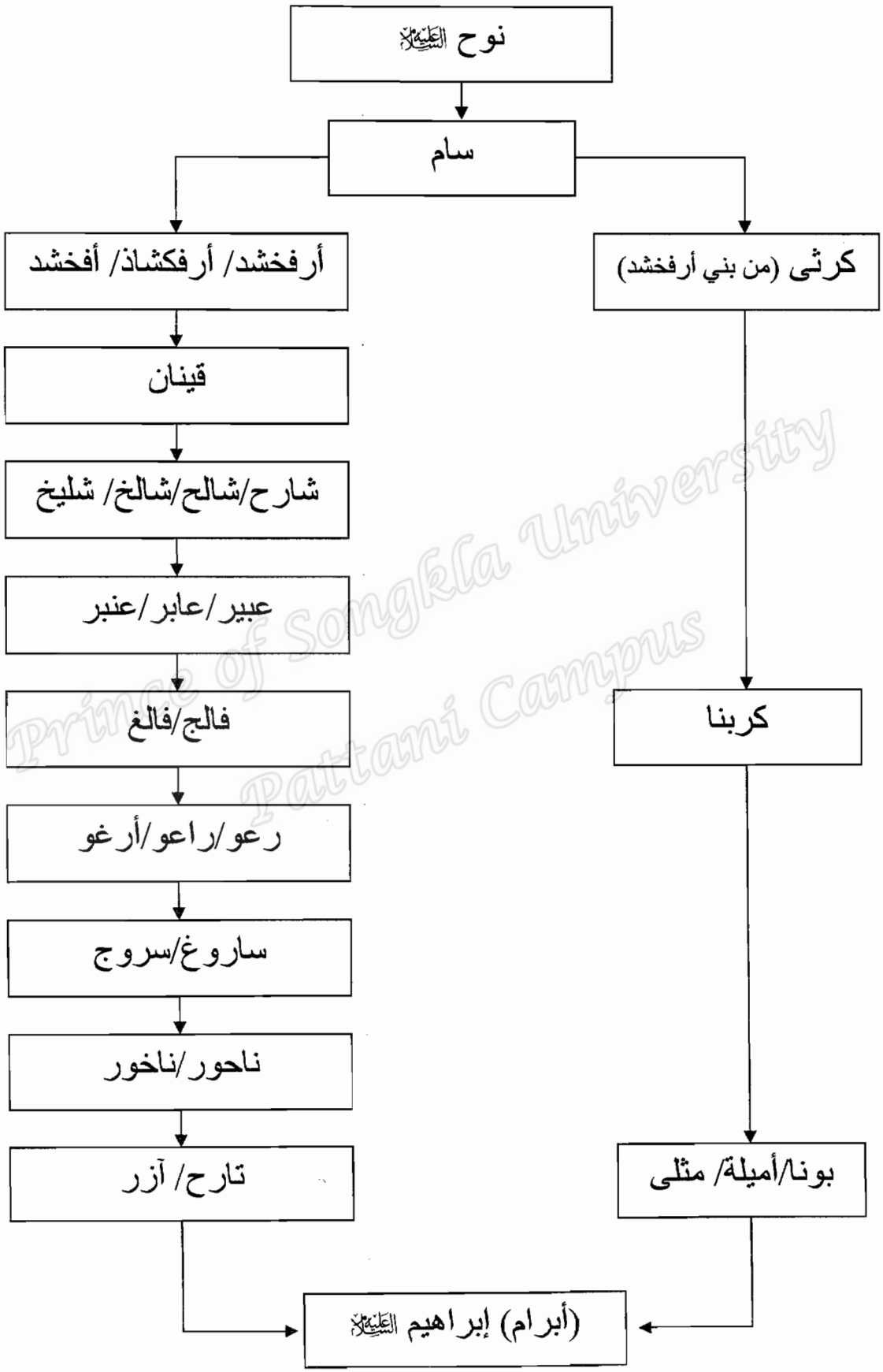

Prince of Songkla University Pattani Campus

سيرة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام

٣,١ ــ اسم خليل الرحمن ونسبه وولادته

٣,١,١ ــ اسم خليل الرحمن ونسبه

ذكر المؤرّخون أن نسب إبراهيم عليه السلام واصل إلى سام بن نوح عليه السلام، وكان اسمه « أبرام »[١] ثمّ غيّر اسمه من أبرام إلى إبراهيم[٢] عليه السلام.

قال ابن خلدون: " وإسماعيل ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ هو ابن إبراهيم بن آزر، وهو تارخ، وآزر اسم لصنمه لقّب به ابن ناحور بن ساروخ (بالخاء أو بالغين) بن عامر أو عنبر بن شالخ أو شليخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. وهذه الأسماء الأعجميّة كلّها منقولة من التوراة ولغتها عبرانيّة. وقال الطبريّ أنّ بين شالخ وأرفخشد أباً آخر اسمه قينن (قينان)، وسقط ذكره من التوراة لأنّه كان ساحراً وادّعى الألوهية. وقال ابن حزم : في كتب النصارى أنّ بين فالغ وعابر أباً آخر اسمه ملكيصدق وهو أبو فالغ. (ابن خلدون ، ١٩٩٩: ٣٣/٢)

وقال ابن هشام : إبراهيم بن تارح ــ وهوآزر[٣] ــ بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالخ[٤] بن عبير[٥] بن شالخ[٦]، بن أرفخشد[٧]، بن سام بن نوح عليه السلام (ابن هشام ، د.ت : ٥/١)

---

(١) معنى « أبرام »: الأب الرفيع أو الأب المتكرّم (نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين، ٢٠٠٥ : ص٩)

(٢) قال أبو البقاء في كلياته: إبراهيم اسم سرياني معناه أب رحيم (الميداني، ١٩٧٩: ٤٢٨. وابن هشام، د.ت : ٥/١) أبو رهام أي أبو جمهور وقال ابن حجر في الفتح: وإبراهيم بالسريانية معناه أب راحم (ابن حجر ، د.ت : ٣٨٠/٦)

(٣) « آزر »: اسم أعجمي علم ممنوع الصرف للعلمية والعجمة الشخصية (أبو حيّان، ١٩٩٢ : ٥٥٩/٤). قيل معناه يا أعوج (ابن هشام، د.ت : ٥/١) وقيل آزر هو الشيخ الهرم بالخوارزمية (الفخر الرازي، ٣٨)

(٤) يقال فيه : فالغ (ابن هشام، المرجع السابق)

(٥) يقال فيه : عابر (ابن هشام، المرجع السابق)

(٦) شالخ : معناه الرسول أو الوكيل (ابن هشام، المرجع السابق) وقيل : شليخ (ابن خلدون، ١٩٩٩ : ٣٣/٢)

(٧) أرفخشد: تفسيره: المصباح المضيء (ابن هشام، المرجع السابق) وقيل: أرفكشاذ (ابن خلدون، ١٩٩٩ : ٣٣)

Prince of Songkla University Pattani Campus

قال ابن جرير الطّبري: هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام (الطبري، ١٩٩٧: ١/٢٣)

وقال ابن الأثير في الكامل في التاريخ: مثل ما قال ابن جرير الطبري، لكن بدل من «ناحور» إلى «ناخور» بالخاء (ابن الأثير، ١٩٩: ١/٥٣)

وقال عبد الوهاب النجّار: هو إبراهيم خليل الله بن تارخ بن ناحور بن سروج بن راعو بن فالح بن عابر بن أرفكشاد (بالكاف بدل الخاء) بن سام بن نوح عليه السلام. وقال ابن كثير في البداية والنهاية: وقيل: هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فانع بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام (ابن كثير، ١٩٩٧ : ١/١٣٩)

وقال ابن حجر ـــ رحمه الله ـــ في الفتح: وإبراهيم هو ابن آزر واسمه تارح (بمثناة وراء مفتوحة وآخره حاء مهملة) ابن ناحور (بنون ومهملة مضمومة) ابن شاروخ (بمعجمة وراء مضمومة وآخره خاء معجمة) ابن راغو (بغين معجمة) ابن فالخ (بفاء ولام مفتوحة بعدها معجمة) ابن عبير ويقال عابر (وهو بمهملة وموحدة) ابن شالخ (بمعجمتين) ابن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. ولا يختلف جمهور أهل النّسب ولا أهل الكتاب في ذلك إلاّ في النطق ببعض هذه الأسماء. (ابن حجر، د.ت : ٦/٣٨٩)

وقد اختلف المؤرّخون في اسم أبي إبراهيم عليه السلام، والظّاهر أن آزر اسم أبيه قاله ابن عباس والحسن والسدي وابن إسحاق وغيرهم. وفي كتب التواريخ أنّ اسمه بالسريانية تارخ، على هذا يكون له اسمان. وقال مجاهد: هو اسم صنم فيكون أطلق على أبي إبراهيم لملازمته عبادته، ويكون ذاك عطف بيان أو حذف مضاف أي عابد آزر، حذف المضاف وأقيم المضاف إليهم مقامه. وقيل: آزر عمّ إبراهيم وليس اسم أبيه وهو قول الشيعة يزعمون أنّ آباء الأنبياء لا يكونون كفّاراً. وظواهر القرآن ترد

عليهم ولا سيّما محاورة إبراهيم مع أبيه في عدة آية. وقال مقاتل: هو لقب لأبي إبراهيم وليس اسماً له. (أبو حيّان، ١٩٩٢ : ٥٦١/٤)

وقد ذكر الخلاف في اسم أبي إبراهيم عليه السلام ورُجّح أن يكون تارخ فكأنهم يشيرون إلى أنّ اسمه إبراهيم بن تارخ (عبد العزيز بن أحمد المسعود، ١٩٩٣ ٣٨٩/١)

وقال الفخر الرازي في تفسيره الكبير: ظاهر هذه الآية يدلّ على أنّ اسم والد إبراهيم هو آزر، ومنهم من قال تارح. وقال الزّجاج : لا خلاف بين النّسابين أن اسمه تارح، ومن الملحدة من جعل هذا طعنا في القرآن. وقال هذا النسب خطأ وليس بصواب، وللعلماء ههنا مقامان:

المقام الأول: أنّ اسم والد إبراهيم عليه السلام هو آزر. وأمّا قولهم أجمع النّسابون على أنّ اسمه كان تارخ، فنقول ضعيف لأنّ ذلك الإجماع إنّما حصل لأنّ بعضهم يقلّد بعضاً، وبالآخرة يرجع ذلك الإجماع إلى قول الواحد والاثنين مثل قول وهب وكعب وغيرهما، وربّما تعلّقوا بما يجدونه من أخبار اليهود والنصارى، ولا عبرة بذلك في مقابلة صريح القرآن.

المقام الثاني: سلّمنا أنّ اسمه كان تارخ ثم لنا ههنا وجوه:

الوجه الأول: لعلّ والد إبراهيم كان مسمّى بهذين الاسمين، فيحتمل أن يقال أنّ اسمه الأصلي كان آزر وجعل تارخ لقباً له، فاشتهر هذا اللّقب وخفي الاسم. فالله تعالى ذكره بالاسم. ويحتمل أن يكون بالعكس، وهو أنّ تارخ كان اسماً أصلياً وآزر كان لقباً غالباً، فذكره الله تعالى بهذا اللّقب الغالب.

الوجه الثاني: أن يكون لفظة آزر صفة مخصوصة في لغتهم، فقيل أنّ آزر اسم ذمّ في لغتهم وهو المخطئ كأنّه قيل: وإذ قال إبراهيم لأبيه المخطئ كأنّه عابه بزيغه وكفره وانحرافه عن الحق. وقيل آزر هو الشيخ الهرم بالخوارزميّة، وهو أيضاً فارسية أصلية.

Prince of Songkla University Pattani Campus

الوجه الثالث: أنّ آزر كان اسم صنم يعبده والد إبراهيم، وإنّما سمّاه الله بهذا الاسم لوجهين: أحدهما: أنّه جعل نفسه مختصّاً بعبادته ومن بالغ في محبة أحد فقد يجعل اسم المحبوب اسماً للمحبّ. وثانيها: أن يكون المراد عابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

والوجه الرابع: أنّ والد إبراهيم عليه السلام كان تارح وآزر كان عمّاً له، والعم قد يطلق عليه اسم الأب، كما حكى الله تعالى عن أولاد يعقوب أنّهم قالوا: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ ومعلوم أنّ إسماعيل كان عماً ليعقوب وقد أطلقوا عليه لفظ الأب، فكذا ههنا.

واعلم أنّ هذه التكليفات إنّما يجب المصير إليها، لو دلّ دليل باهر على أنّ والد إبراهيم ماكان اسمه آزر وهذا الدليل لم يوجد البتة، فأيّ حاجة تحملنا على هذه الآية، أنّ اليهود والنصارى والمشركين كانوا في غاية الحرص على تكذيب الرسول عليه الصّلاة والسّلام وإظهار بغضه، فلوكان هذا النّسب كذباً لامتنع في العادة سكوتهم عن تكذيبه وحيث لم يكذّبوه علمنا أنّ هذا النسب صحيح. والله أعلم. (الفخر الرازي، د.ت : مج٧ ج١٣/٣٧)

وقال الشيخ أبو اللّيث: وكان اسم أبيه تارح بن ناخور بلغة قومه وبلغة غيرهم كان آزر. وقال السّديّ كان اسم أبيه آزر. وهكذا قال الكلبي. وقال بعضهم: لم يكن آزر اسم أبيه ولكن كان اسم كبير أصنامهم. وقال مجاهد: آزر ليس اسم أبيه وإنّما هو اسم صنم. وقال الضّحّاك عن ابن عباس: إنّ في هذه الآية تقديماً فكأنه قال: أتتخذ آزر أصناماً آلهة؟ (السمرقندي، ١٩٩٣ : ١/٤٩٥)

وذكر ابن جري الطبري في تفسيره: الخلاف في اسم والد إبراهيم ، ثم قال بعد ذلك فأولى القولين بالصواب منهما عندي قول من قال اسم أبيه لأنّ الله تعالى أخبر أنّه أبوه وهو القول المحفوظ من قول أهل العلم (الطبري، ١٩٩٢ : مج٥ ١٥٩/٧)

وقال الخازن مرجّحاً أنّ أباه آزر: والصحيح أنّ آزر اسم لأبي إبراهيم لأنّ الله تعالى سمّاه به وما نقل عن النّسابين والمؤرّخين أنّ اسمه تارخ ففيه نظر لأنّهم إنّما نقلوه عن أصحاب الأخبار وأهل السير من أهل الكتاب ولا عبرة بنقلهم، وقد أخرج البخاري في أفراده من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة على وجه آزر قترة وغبرة**)) (البخاري رقم ٣٣٥٠٠). في هذا الحديث واضح أن النبي ﷺ سمّى أبا إبراهيم عليه السلام « آزر » ولم يقل أباه « تارخ »، فثبت أنّ اسم أبيه «آزر» لا «تارخ». والله أعلم. (الخازن، ١٩٧٩ : ١٤٨/٢).

والصحيح أنّ اسم أبيه آزر، لصريح القرآن الكريم والسنة النبويّة وجمهور المفسّرين وغيرهم من جمهور العلماء. (القنوجي، ١٩٩٥ : ١٧٤/٤)

فالقرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام : ٧٤) .

والسّنة النبويّة: هو مارواه البخاري من حديث أبي هريرة السابق.

وأنّ جمهور المفسّرين المعتبرين وغيرهم من جمهور العلماء مشوا على صريح القرآن ورجّحوا أنّ اسمه آزر (عبد العزيز بن أحمد المسعود، ١٩٩٣ : ٣٩٢/١)

وأمّا أمّه فقد حكى الحافظ ابن عساكر[1] عن إسحاق بن بشر الكاهلي أنّ اسم أمّ إبراهيم « أميلة ». وقال الكلبي: اسمها « بونا » بنت كربنا بن كرثى من بني أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام (ابن كثير، ٢٠٠٢، ٨٩) وقيل : اسم أمّ إبراهيم « مثلى» قال ابن عباس[2]: الآزر الصنم وأبو إبراهيم اسمه يازر، وأمّه اسمها مثلى، وامرأته اسمها سارة ، وسريّته أمّ إسماعيل اسمها هاجر. (القنوجي، ١٩٩٥ : ١٧٤/٤)

---

(١) ابن عساكر: هو على بن الحسن بن هبة الله ، أبو القاسم ، ثقة الدين ابن عساكر الدمشقي المؤرخ الحافظ الرحالة. ولد سنة ٤٩٩هـ وتوفي سنة ٥٧١هـ بدمشق. وله مؤلفات منها "تاريخ دمشق الكبير" وغيرها (الزركلي، ١٩٨٩ : ٢٧٢/٤)

(٢) ابن عباس : سبق له الترجمة

٣,١,٢ ــ ولادته

لا يتحدّث القرآن الكريم عن ميلاد خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام أو عن طفولته، ولا يتوقّف عند عصره صراحة، ولكنّه يرسم صورة لجو الحياة في أيّامه، لكن يتحدّث عنه المؤرّخون حسب ما درسوا وسمعوا، حيث إن منهم يقولون: والناس في أيّامه قد انقسموا إلى ثلاث فئات:

ــ فئة تعبد الأصنام والتماثيل الخشبية والحجرية وغيرها.

ــ وفئة تعبد الكواكب والنجوم والشمس والقمر.

ــ وفئة تعبد الملوك والحكّام.

وفي هذا الجوّ ــ جوّ الشرك والظلم ــ ولد إبراهيم عليه السلام. وكان مولده في أسرة من أسر ذلك الزمان البعيد. ولم يكن ربّ الأسرة كافراً عادياً من عبدة الأصنام وإنّما كان كافراً متميّزاً يصنع بيديه تماثيل الآلهة.

قيل: إنّ أباه مات قبل ولادته فربّاه عمّه وكان له بمثابة الأب، وكان إبراهيم يدعوه بلفظ الأبوة. وقيل: إنّ أباه لم يمت وكان آزر هو والده حقاً. وقيل: إنّ آزر اسم صنم اشتهر أبوه بصناعته. ومهما يكن من أمر فقد ولد إبراهيم عليه السلام في هذه الأسرة. ربّ الأسرة أعظم نحات يصنع تماثيل الآلهة. ومهنة الأب تضفي عليه قداسة خاصّة في قومه، وتجعل لأسرته كلّها مكاناً ممتازاً في المجتمع. هي أسرة مرموقة، أسرة من الصفوة الحاكمة.

ومن هذه الأسرة المقدّسة، ولد طفل ــ إبراهيم عليه السلام ــ قدّر له أن يقف ضدّ أسرته، وضدّ نظام مجتمعه، وضدّ أوهام قومه، وضدّ ظنون الكهنة، وضدّ العروش القائمة، وضدّ عبدة النجوم والكواكب، وضدّ عبدة الأصنام والتماثيل، وضدّ كل أنواع الشرك في زمانه. وكان طبيعياً أن يكون له جزاؤه الإلقاء في النار حياً. لكن حماه الله تعالى ورعاه ولم تحرقه النار، فقال ﷻ وهو أصدق القائلين: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (الأنبياء : ٦٩) فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم.

Prince of Songkla University Pattani Campus

اختلف المؤرّخون في تحديد الموضع الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام إلى أقوال؛ قيل: إنّه ولد بين قرية برزة في جبل قاسيون أو أرض الكلدانيين ببابل، أو السوس بالأهواز أو بحران، أوغيرها. وذكروا: أنّه ولد بالأهواز، وقيل: ببابل[1] ـــ وهي العراق ـــ ويذكر أهل التوراة أنه كان من أهل « فدان آرام » بالعراق. وكان أبوه نجاراً يصنع الأصنام ويبيعها لمن يعبدها. (الميداني، ١٩٧٩ : ٤٢٩)

وعن صفوان عن ابن مسكان قال: إنّ آزر أبا إبراهيم عليه السلام وكان منجمًا لنمرود بن كنعان،

فقال له آزر : إنّي أرى في حساب النجوم أنّ هذا الزمان يحدث رجلاً فينسخ هذا الدّين ويدعو إلى دين أخر.

فقال له نمرود : في أي بلاد يكون ؟

قال آزر : في هذه البلاد

فقال له نمرود : قد خرج إلى الدّنيا ؟

قال آزر : لا

قال : فينبغي أن يفرّق بين الرجال والنساء.

ففرّق بين الرجال والنساء ، وحملت أمّ إبراهيم بإبراهيم عليه السلام ولم يبيّن حملها، فلماّ حانت ولادتها قالت: يا آزر إنّي قد اعتللت وأريد أن أعتزل عنك، وكان في ذلك الزّمان المرأة إذا اعتلت اعتزلت عن زوجها، فخرجت واعتزلت في غار ووضعت بإبراهيم عليه السلام وهيأته وقمطته ورجعت إلى منزلها وسدت باب الغار بالحجارة، فأجرى الله لإبراهيم عليه السلام لبناً من إبهامه وكانت تأتيه أمّه ووكّل نمرود بكل امرأة حامل، فكان يذبح كلّ ولد ذكر، فهربت أمّ إبراهيم بإبراهيم من الذّبح ، وكان يشب إبراهيم عليه السلام في الغار يوماً كما يشب غيره في الشهر حتى أتى له في الغار ثلاث

---

(١) ومعنى كلمة «بابل» بالسريانية: النهر ، ولعلهم عنوا بذلك دجلة والفرات ، ولذلك سموا البلاد الواقعة على شواطئهما ببابل. ومن ذلك كان إقليم مصر معروفاً عند الأمم باس : (بابليون) ، أي نهر أكبر أو نهر مبارك ؛ إلا عند العرب فإنهم يسمونه : إقليم مصر نسبة إلى مصر بن حام بن نوح ، الذي نزل به بعد الطوفان. وقيل : أصل (بابل) باب إبل ، أي باب الإله. والله أعلم (الميداني، ١٩٧٩ : ٤٢٩)

Prince of Songkla University Pattani Campus

عشرة سنة، فلماّ كان بعد ذلك زارته أمّه فلماّ أرادت أن تفارقه تشبث بها فقال: يا أمّي أخرجيني، فقالت له: يابنيّ إنّ الملك إن علم أنّك ولدت في هذا الزمان قتلك.

ويقال: إنّ نمرود بن كنعان قالت له كهنته: يولد في هذه السنة غلام ينازعك في ملكك، فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة. ويقال: أنّه رآى في المنام أنّ كبشاً دخل عليه فنطح سريره بقرنه فسأل المعبّرين، فأخبروه أنّه يولد غلام ينازعك في ملكك فأمر بذبح كلّ غلام يولد، فحملت أمّ إبراهيم بإبراهيم عليه السلام ولم يتبيّن حملها ولم يعرف أحد أنّها حامل حتى أخذها الطلق فخرّت إلى جبل من الجبال ودخلت في غار فولدت إبراهيم عليه السلام، وخرجت ووضعت صخرة على باب الغار. (أبو الليث السمرقندي، ١٩٩٣ : ٤٩٥-٤٩٦)

وقال الطبري في تاريخه: "واختلفوا في الموضع الذي كان منه، والموضع الذي ولد فيه ، فقال بعضهم: كان مولده بالسوس من أرض الأهواز. وقال بعضهم: كان مولده ببابل من أرض السواد. وقال بعضهم: كان بالسواد بناحية كوثى[1]. وقال بعضهم: كان مولده بالوركاء بناحية الزوابي وحدود كسكر ثمّ نقله أبوه إلى الموضع الذي كان نمرود من ناحية كوثي. وقال بعضهم : كان مولده بحران لكن نقله أبوه تارخ إلى أرض بابل" (الطبري ، ١٩٩٧ : ١٤٢/١)

ونقل ابن الأثير ـــ رحمه الله ـــ في كتابه الكامل في التاريخ: قيل: إنّه ولد بالسوس من أرض الأهواز، وقيل : ولد ببابل، وقيل: بكوثى، وقيل بحرّان ولكنّ أبوه نقله (ابن الأثير، ١٩٩٤ : ٨٤).

قال ابن كثير ـــ رحمه الله ـــ في قصص الأنبياء: "وأنّه ولد في أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل، ثمّ قال : وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار. وصحّح ذلك الحافظ ابن عساكر بعد ما روى عن طريق هشام بن عمّار عن الوليد عن سعيد بن عبد العزيز عن مكحول عن ابن عباس رضي الله عنه قال: " ولد إبراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها برزة في جبل يقال له قاسيون، ثم قال:

---

(١) وفي بعض النسخ: بناحية كوثا ـــ بالألف ـــ من السواد وهو قول ابن إسحاق (ابن خلدون، ١٩٩٩ : ٣٤)

والصحيح أنّه ولد ببابل. وإنّما نسب إليه هذا المقام لأنّه صلّى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام" (ابن كثير، ١٩٩٧ : ١/١٤٠، ١٤٢).

وأمّا زمن ولادته فبعد مائتين وسبع وتسعين سنة من الطوفان[١]. وهو في عهد النمرود. قال الطبري: قال عامّة السلف من أهل العلم: كان مولد إبراهيم عليه السلام في عهد نمرود بن كوش (الطبري، ١٩٩٧ : ١/١٤٢)[٢].

وقال ابن كثير: ولّما كان عمر تارح خمساً وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام وناحور وهاران، وعندهم أنّ إبراهيم هو الأوسط، وأنّ هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها، وهي أرض الكلدانيين، يعنون أرض بابل. وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار. (ابن كثير، ٢٠٠٢ : ٨٩)

وذكر ابن جرير: أنّ مولده كان في زمن النمرود بن كنعان، وهو فيما قيل: الضحّاك الملك المشهور الذي يقال إنّه ملك ألف سنة. وكان في غاية الغشم والظلم. وذكر بعضهم أنّه من بني راسب الذين بعث إليهم نوح عليه السلام، وأنّه كان إذ ذاك ملك الدنيا، وذكروا أنّه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر، فهال ذلك أهل ذلك الزمان، وفزع النمرود، فجمع الكهنة والمنجّمين وسألهم عن ذلك فقالوا: يولد مولود في رعيتك يكون زوال ملكك على يديه، فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء، وأن يقتل المولودون من ذلك الحين، فكان مولد إبراهيم الخليل عليه السلام في ذلك الحين، فحماه الله عزّ وجلّ وصانه من كيد الفجّار، وشبّ شبابا باهراً، وأنبته الله نباتاً حسناً. (ابن كثير، ٢٠٠٢ /١٢٥)

---

(١) كما في تاريخ ابن خلدون: ومن الغريب الواقع في التوراة أن عمر إبراهيم عليه السلام كان يوم وفاة نوح عليه السلام ثلاثا وخمسون سنة، لأنه قال أن أرفخشد ولد لسام بعد سنتين من الطوفان، ولما بلغ خمسا وثلاثين سنة ولد له ابنه شالخ، وبعد ثلاثين سنة فولد له أرغو وبلغ أرغو ثنتين وثلاثين سنة فولد شاروغ، وبلغ شاروغ ثلاثين سنة فولد ناحور، وبلغ ناحور تسعا وعشرين سنة فولد له تارح، وبلغ تارح خمسا وسبعين سنة فولد إبراهيم. وجملة هذه السنين من الطوفان إلى ولادة إبراهيم مائتان وسبع وتسعون سنة. (ابن خلدون، ١٩٩٩: ٣٣)

(٢) وكذلك في الكامل لابن الأثير: نمرود بن كوش (ابن الأثير، ١٩٩٤: ٨٤)

وقال ابن خلدون في تاريخه: كان الكهّان يتحدّثون بولادة رجل يخالف الدين ويكسّر الأصنام، فأمر بذبح الولدان فولدته أمّه وتركته بمغارة في فلاة من الأرض حتّى كبر وشبّ. (ابن خلدون، ١٩٩٩ : ٣٤)

وأكثر المفسّرين ذكروا أنّ ملك ذلك الزمان رأى رؤيا، وعبّرها المعبّرون بأنّه يولد غلام ينازعه في ملكه، فأمر ذلك الملك بذبح كل غلام يولد. فحبلت أمّ إبراهيم به وما أظهرت حبلها للنّاس، فلمّا جاءها الطلق ذهبت إلى كهف في جبل ووضعت إبراهيم وسدّت الباب بحجر، فجاء جبريل عليه السلام ووضع أصبعه في فمه فمصّه فخرج منه رزقه وكان يتعهّده جبريل عليه السلام، فكانت الأمّ تأتيه أحياناً وترضعه وبقي على هذه الصفة حتى كبر وعقل. (الفخر الرازي، ط٣ د.ت: ٤٥/١٣)

وحدث مثل هذا في زمن فرعون ـــ لعنة الله ـــ أنه كان رأى رؤيا مضمونها أن زوال ملكه يكون على يد رجل من بني إسرائيل، فعند ذلك أمر فرعون ـــ لعنة الله ـــ بقتل كلّ ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل وتترك البنات كما بيّنها القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ **يَسُوْمُوْنَكُمْ سُوْءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُوْنَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُوْنَ نِسَاءَكُمْ** ﴾ (البقرة : ٤٩)

Prince of Songkla University Pattani Campus

٣,٢ ـــ واقع الأديان في عهده

جدول (٤) : شجرة الأديان في عهد خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام

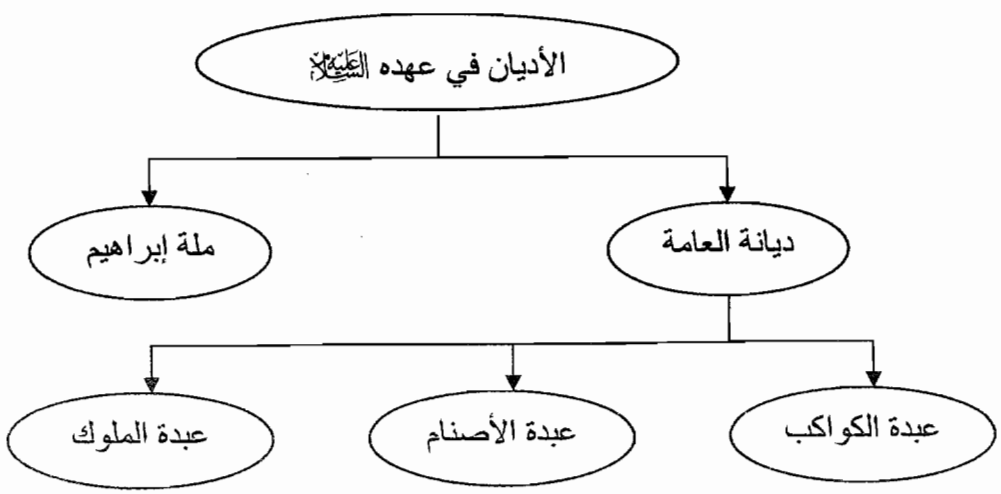

أ ــ تعريف الدين في اللغة

هو: مشتق من الفعل الثلاثي « دان » وهو تارة يتعدّى بنفسه، وتارة باللام، وتارة بالباء ، ويختلف باختلاف ما يتعدى به.

فإذا تعدّى بنفسه يكون « دانه » بمعنى ملكه، وساسه، وقهره، وحاسبه، وجازاه.

وإذا تعدّى باللام يكون « دان له » بمعنى خضع له وأطاعه.

وإذا تعدّى بالباء يكون « دان به » بمعنى اتّخذه ديناً ومذهباً واعتاده، وتخلق به ، واعتقده. (لسان العرب، ١٤٦٧/٢)

وهذه المعاني اللغوية للدّين موجودة في « الدّين » في المعنى الاصطلاحي كما سيتبيّن لأنّ الدّين يقهر أتباعه ويسوسهم وفق تعاليمه وشرائعه، كما يتضمّن خضوع العابد للمعبود وذلته له، والعابد يفعل ذلك بدوافع نفسيّة ويلتزم به بدون إكراه أو إجبار.

ب ــ تعريف الدين في الاصطلاح

اختلف في تعريف الدين اصطلاحاً اختلافاً واسعاً حيث عرّفه كلّ إنسان حسب مشربه، وما يري أنّه من أهمّ مميّزات الدّين.

فمنهم من عرّفه بأنه "الشرع الإلهي المتلقى عن طريق الوحي" وهذا تعريف أكثر المسلمين. ويلاحظ على هذا التعريف قصره الدّين على الدّين السماوي فقط، مع أنّ الصّحيح أنّ كلّ ما يتّخذه النّاس ويتعبّدون له يصحّ أن يسمّى ديناً، سواء كان صحيحاً أو باطلاً، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٨٥)

Prince of Songkla University Pattani Campus

وقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون : ٦) فسمّى الله ما عليه مشركوا العرب من الوثنيّة ديناً.

أمّا غير المسلمين فبعضهم يخصّصه بالناحية الأخلاقية كقول كانْت[1]: "بأنّ الدّين هو المشتمل على الإعتراف بواجباتنا كأوامر إلهيّة"

وبعضهم يخصّصه بناحية التفكّر والتأمّل كقول رودلف إيوكن: "الدّين هو التجربة الصوفيّة الّتي يجاوز الإنسان فيها متناقضات الحياة".

وأرجح التعريفات:

الدين: هو اعتقاد قداسة ذات، ومجموعة السلوك التي تدّل على الخضوع لتلك الذات ذلاً وحباً، رغبةً ورهباً.

فهذا التعريف فيه شمول للمعبود، سواء كان معبوداً حقاً، وهو الله ﷻ، أو معبوداً باطلاً وهو ما سوى الله ﷻ.

كما يشمل أيضاً العبادات التي يتعبّد النّاس بها لمعبوداتهم سواء كانت سماويّة صحيحة كالإسلام، أو لها أصل سماوي ووقع فيها التحريف والنسخ كاليهوديّة والنصرانيّة، أو كانت وضيعة غير سماويّة الأصل كالهندوكية، والبوذية، وعموم الوثنيّات.

كما يبرز التعريف حال العابد إذ لا بدّ أن يكون العابد متلبّساً بالخضوع ذلاً وحباً للمعبود حال العبادة، إذ أنّ ذلك أهمّ معاني العبادة.

ويبيّن التعريف أيضاً هدف العابد من العبادة، وهو إمّا رغبة أو رهبة، أو رغبة ورهبة معاً، لأنّ ذلك هو مطلب بني آدم من العبادة. والله أعلم. (أنظر: الخلف، د.ت : ٦ــــ٨)

والأديان الموجودة في عهده وفي مجتمعه هي ديانة العامة وملة إبراهيم عليه السلام ونذكرها كما يأتي:

---

(١) كانت: هو عما نوئيل، فيلسوف ألماني ذهب إلى أن الإنسان لا يدرك ماهية الأشياء بل يدرك ظواهرها الحسية في الزمان والمكان. توفي سنة ١٨٠٤م (المنجد في الأعلام: ٣٢٦)

٣,٢,١ ــ ديانة العامة

لكلّ أمّة دين يعتنقون به، وكانت الأمم كلّها في قديم الدهر، قبل ظهور الشرائع الدينية، صفاً واحداً، ثمّ صاروا على أديان ثلاثة، وهي الصّابئة، والمجوس، والذين أشركوا.

فأمّا الصّابئة: فهي الّتي تعبد الكواكب، وترى أنّ سائر ما في العالم السفلي المعبّر عنه بالحياة الدنيا ناشئ وصادر عن الكواكب، وأنّ الشّمس هي المفيضة على الكلّ.

وأمّا المجوس: فهم الذين يقولون بإلهين اثنين، أحدهما فاعل الخير وهو النور، والآخر فاعل الشّر وهو الظلام، ويقال لهم التنويه أيضا. واتخذوا لهم بيوت نيران لا تزال تقد أبداً، وكانت إلى هذه النيران صلواتهم وقرابينهم، ويعتقدون فيها النفع والضّر.

وأمّا الذين أشركوا: فهم مشركون وإن وافقهم الصابئة والمجوس في عبادة التماثيل والنار من دون الله، وكانوا يعبدون الأصنام والأوثان والطواغيت من دون الله يسجدون ويصلون ويذبحون الذبائح لتماثيل عندهم، وقد اتخذوها من الحجر والشجر والخشب وغيرها ويزعمون أنّها تجلب النفع وتدفع الضّر[1] (المقريزي، ١٩٩٧: ١٠٤-١٠٧).

واعلم أنّه لا دين أقدم من دين عبدة الأوثان والأصنام ، والدليل عليه أنّ أقدام الأنبياء الذين وصل إلينا تواريخهم على سبيل التفصيل هو نوح عليه السلام ، وهو جاء للردّ على عبدة الأصنام، كما قال تعالى حكاية عن قومه أنّهم قالوا: ﴿ **وَقَالُواْ لَا**

---

(١) وأمّا اليهود: فإنّهم اتباع نبيّ الله موسى بن عمران عليه السلام وكتابهم التوراة، وكلّهم أبناء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ويعرفون أيضاً ببني إسرائيل. والنصارى: فإنّهم أتباع نبي الله المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وكتابهم الإنجيل، وكلّهم بنو أسرائيل. وجاء الله بالمسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام إلى بني إسرائيل فكذّبوه إلا طائفة منهم، ثم انتشر دينه بعد رفعه عليه السلام بدهر. فهذه ديانات أهل الأرض قبل بعثة محمد ﷺ (المقريزي، ١٩٩٧: ١٠٤-١٠٧)

﴿ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (نوح : ٢٣) وذلك يدلّ على أنّ دين عبدة الأصنام كان موجوداً قبل نوح عليه السلام وقد بقي ذلك الدّين إلى هذا الزمان، فإنّ أكثر سكان أطراف الأرض مستمرّون على هذا الدّين والمذهب الذي هذا شأنه يمتنع أن يكون معلوم البطلان في بديهة العقل، لكنّ العلم بأنّ هذا الحجر المنحوت ليس هو الذي خلق المخلوقات، والعلم الضروري يمتنع إطباق الخلق الكثير على إنكاره، فظهر أنّه ليس دين عبدة الأصنام كون الصّنم خالقها للسماء والأرض.

وأمّا ديانة العامة في عهد خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام فهي ديانة الشرك والوثن[1]، وإن الناس في ذلك العصر قد انقسموا إلى ثلاث فئات؛ فئة تعبد الكواكب والنجوم والشمس والقمر، وفئة تعبد الأصنام والتماثيل ويتخذونها من الخشب والحجر والجوهر والمعادن. وفئة تعبد الملوك والحكام. وكان أهل حران ـــ وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان ـــ يعبدون الكواكب السبعة، وكذلك أرض الجزيرة والشام. وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام. (ابن كثير، ١٩٩٦: ١٦٨، ١٧٣)

وكان أبو إبراهيم عليه السلام وقومه يعبدون إلهاً غير الله، فكانوا في أور الكلدانيين يعبدون آلهة كثيرة وبنوع خاص مثل « نانار» وزوجته «ننجال»، وكان في أور الكلدانيين على مرتفعة عالية بناء يشبه الهرم يسمّى باللغة البابلية «زجوراة» وفوق «الزجوراة» معبد للإله «نانار» (نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص، ٢٠٠٥ : ١١)

هذا الدّين الذي لم يكتشف قبل الحفريات الأثرية العصرية، كلّمنا عنه القرآن الكريم، لقد رفض إبراهيم عليه السلام عبادة هذه الأوثان، إلتفت لعبادة الله وحده، تبيّن لنا الآيات الآتية كيف كان سلوك إبراهيم عليه السلام وموقفه إزاء هذا المعتقد:

---

(١) الأوثان أعمّ من الأصنام. فاسم الوثن يتناول كل معبود من دون الله، سواء كان ذلك المعبود قبراً أو مشهداً أو صورةً أو غير ذلك. (عبد الرحمن بن حسن بن محمد عبد الوهاب، ١٤١٩هـ: ٣٢٦)

Prince of Songkla University Pattani Campus

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَٰفِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ٧٤-٧٩)

وعبدة الكواكب فريقان:

الفرقة الأولى: من يقول إنّ الله ﷻ خلق هذه الكواكب، وفوّض تدبير هذا العالم السّفلى إليها. فهذه الكواكب ـــ في عقيدتهم وزعمهم ـــ هي المدبّرات لهذا العالم، قالوا: فيجب علينا أن نعبد هذه الكواكب، ثم إنّ هذه الأفلاك والكواكب تعبد الله وتطيعه.

والفرقة الثانية: قوم غلاة ينكرون الصانع الخالق ، ويقولون هذه الأفلاك والكواكب ـــ في عقيدتهم وزعمهم ـــ أجسام واجبة الوجود لذواتها ويمتنع عليها العدم والفناء، وهي المدبّرة لأحوال هذا العالم الأسفل، وهؤلاء هم الدّهرية الخالصة.

وهذا الدين أقدم هذه الأديان، وبه كان يدين أهل بابل من الكلدانيين، وإليهم بعث الله نوحاً وإبراهيم ـــ عليهما السلام ـــ وكانت الصابئة تتّخذ التماثيل من الجواهر والمعادن على أسماء الكواكب وتعبدها، فتصلى إليها وتقرّب لها القرابين، وتعتقد أنّها تجلب النفع وتدفع السوء وبقيت منهم بقايا بأرض السواد من العراق وبحران.

Prince of Songkla University Pattani Campus

إنّ النّاس رأوا تغيّرات أحوال هذا العالم الأسفل مربوطة بتغيّرات أحوال الكواكب، فإنّ بحسب قرب الشمس وبُعدها من سمت الرأس تحدث الفصول الأربعة، وبسبب حدوث الفصول الأربعة تحدث الأحوال المختلفة في هذا العالم، ثمّ إنّ الناس ترصدوا أحوال سائر الكواكب فاعتقدوا ارتباط السعادات والنحوسات بكيفية وقوعها في طوالع الناس على أحوال مختلفة فلمّا اعتقدوا ذلك غلب على ظنون أكثر الخلق أنّ مبدأ حدوث الحوادث في هذا العالم هو الاتصالات الفلكية والمناسبات الكوكبية، فلمّا اعتقدوا ذلك بالغوا في تعظيمها، ثمّ منهم من اعتقد أنّها واجبة الوجود لذواتها، ومنهم من اعتقد حدوثها وكونها مخلوقة للإله الأكبر، إلاّ أنّهم قالوا إنّها وإن كان مخلوقة للإله الأكبر، إلاّ أنّها هي المدبّرة لأحوال هذا العالم وهؤلاء هم الذين أثبتوا الوسائط بين الإله الأكبر، وبين أحوال هذا العالم. ثمّ اتخذوا لكلّ كوكب صنماً من الجوهر المنسوب إليه واتخذوا صنم الشمس من الذهب وزيّنوه بالأحجار المنسوبة إلى الشّمس وهي الياقوت والألماس، واتخذوا صنم القمر من الفضّة وعلى هذا القياس ثم أقبلوا على عبادة هذه الأصنام. وغرضهم من عبادة هذه الأصنام هو عبادة تلك الكواكب والنجوم والتقرّب إليها.

وعند هذا البحث يظهر أنّ المقصود من عبادة هذه الأصنام هو عبادة الكواكب والتقرّ إليها ثمّ بالغوا في تعظيمها. (الفخر الرازي، ط٣ د.ت : مج٧ ١٣/٣٥ــ٣٦)

ونجد في زمن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام كان الكثير ممّن يسكنون «وادي الرافدين» وهضبة الأناضول يعبدون الكواكب، كالشمس والقمر والنجوم، وكان «سن»[1] أكثر آلهتهم شهرة وهو إله القمر، وكانوا يمثّلونه كإنسان بلحية طويلة يرتدي ثوباً ويحمل قمراً في يده على شكل هلال، وكان هؤلاء ينقشون صوراً وينحتون تماثيل لهذه الآلهة ويعبدونها.

انتشر نظام العبادة هذا انتشاراً واسعاً ، وقد وجد تربة خصبة ومناسبة في

---

(١) « سن » : اسم لصنم مشهور عند أهل وادي الرافدين وهضبة الأناضول في قديم الزمان

منطقة الشرق ضمنت له استمراراً جيّداً ولوقت طويل. بقي الناس يعبدون هذه الآلهة حتى سنة ٦٠٠م، ونتيجة لهذا المعتقد ظهرت أنواع من الأبنية سمّيت «الزاكورات» على امتداد المنطقة الواقعة ما بين «وادي الرافدين» وهضبة الأناضول الداخليّة، وكانت تستخدم كمعابد ومراصد فلكيّة، هنا عبد إله القمر «سن»[٢]

صورة (١): صورة إله القمر «سن»

Prince of Songkla University Pattani Campus

نقش حجري يصور إله القمر «سن» الذي كشفت عنده الحفريات مؤخراً عثر عليه في أور

(٢) (انظر: موقع هارون يحيى: http://www.reformation.org/vatican-and-islam.html)

نقش حجري آخر يصور إله القمر «سن» الذي كشفت عنده الحفريات مؤخراً عثر عليه في أور

Prince of Songkla University Pattani Campus

(انظر: موقع هارون ؛ صورة (٢) : صورة الزاكورات http://www.reformati)

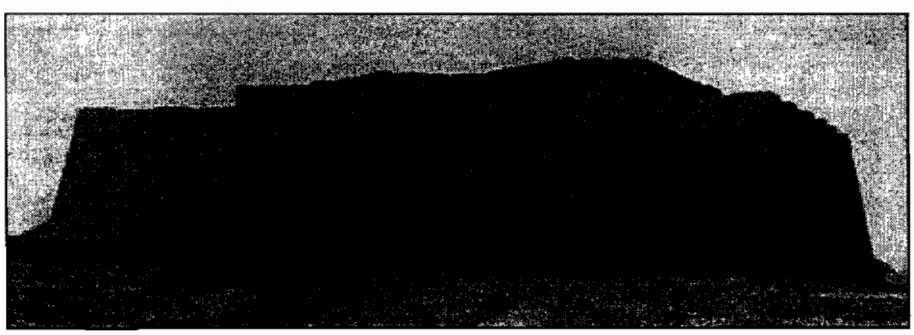

بنيت الزاكورات التي كانت تستخدم كمعابد ومراصد فلكية في وقت واحد، بتقنيات ذلك العصر المتقدمة جداً. كانت النجوم والقمر والشمس هي المعبودات الرئيسية؛ لذلك كانت السماء على جانب من الأهمية بالنسبة لهم. تظهر زاكورات وادي الرافدين الهامة إلى اليسار والأسفل.

صورة (٣): صورة الثلاثي الوثني المقدّس (الشمس والقمر والنجوم)

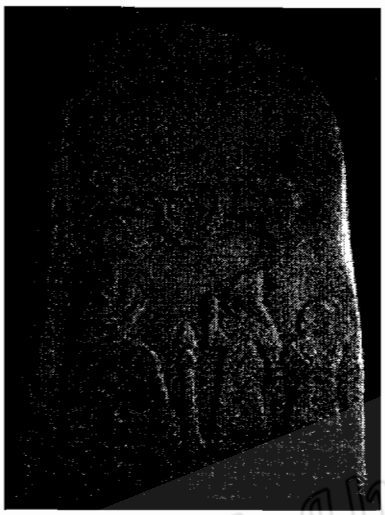

كشفت الحفريات أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الشمس والقمر والنجوم وقد ظهر هذا جلياً في النقوش الأثرية التي كشفتها التنقيبات الأثرية في مدينة أور، يظهر في الصورة نقش للثلاثي الوثني المقدس (الشمس والقمر والنجوم)

Prince of Songkla University Pattani Campus

(انظر: موقع هارون يحيى: http://www.reformation.org/vatican-and-islam.html)

صورة (٤) : مجموعة الصور المختلفة

كانت الأديان الشركية هي السائدة في زمن النبي إبراهيم عليه السلام في منطقة وادي الرافدين فكان الإله «سن» إله القمر أحد أهم الأوثان لديهم. قام الناس بنحت تماثيل لهذه الآلهة وعبدوها. تبدو تماثيل «سن» إلى اليسار. كما تظهر علامة الهلال بوضوح على صدر التمثال. بنيت الزاكورات التي كانت تستخدم كمعابد ومراصد فلكية في وقت واحد، بتقنيات ذلك العصر المتقدمة جداً. كانت النجوم والقمر والشمس هي المعبودات الرئيسية؛ لذلك كانت السماء على جانب من الأهمية بالنسبة لهم. تظهر زاكورات وادي الرافدين الهامة إلى اليسار والأسفل

(انظر: موقع هارون يحيى: http://www.reformation.org/vatican-and-islam.html)

Prince of Songkla University Pattani Campus

٣,٢,٢ــ ملّة إبراهيم

وردت كلمة «ملّة» في القرآن الكريم والأحاديث النبوية في عدة مواضع وفي عدة معان حسب السياق:

فوردت في القرآن الكريم كلمة «الملّة» و«الدّين» و«الشّريعة» و«المنهاج» والعلوم الإسلامية المتعددة يجدها ترجع إلى أحد أمور ثلاثة جاء بها هذا الإسلام، وهي «الملّة» و«الشّريعة» و«المنهاج» التي يجمعها في اصطلاح «الدّين» أو «الإسلام». ولكل واحدة منها معنى يخصّها وحقيقة توافقها لغة واصطلاحاً.

وقد يأتي معنى الدّين بأنه الاستسلام والخضوع والطاعة والانقياد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران : ١٩). وقد يرد بمعنى الجزاء، يقال « كما تدين تدان » أي كما تفعل تجازى. وقد يرد بمعنى الحساب يوم المعاد والتناد ، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (التوبة : ٣٦).

الملّة في اللغة:

و«الملّة»: تطلق في اللغة ويراد بها «الشريعة والدّين» وفي الحديث : ((**لا يتوارث أهل ملّتين**)) والملّة: الدّين، كملّة الإسلام، والنصرانية، واليهودية، وقيل: هي معظم الدّين، وجملة ما يجيء به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ويفهم من هذا أنّ كلمة « ملّة » تكون مرادفة لكلمة « دين أو شريعة » كما تكون دالّة على معظم الدين والشريعة.

الملّة في الاصطلاح:

وأمّا «الملّة» في الاصطلاح: فقد أطلقت الملّة على « أصل الدّين أو على جانب العقائد فيه ». والإنسان بطبيعته الحاجة إلى العلاقة والتواصل مع الآخرين من بني جنسه في إقامة معاشه، والاستعداد لمعاده، وذلك العلاقة يجب أن يكون على شكل

Prince of Songkla University Pattani Campus

يحصل به التمانع والتعاون حتى يحفظ بالتمانع ماهو أهله، ويحصل بالتعاون ما ليس له، فصورة الاجتماع على هذه الهيئة هي الملّة والشريعة والمنهج.

وعلى هذا القول فإنّ ملّة الأنبياء واحدة، وملّة الكفر واحدة. فإذا أطلقت «الملّة» بمقابل الشريعة والمنهج انصرفت إلى « جانب العقائد من الدين »، وإذا أطلقت وحدها شملت الدين كلّه.

وقد تأتي كلمة «الملّة» في القرآن الكريم في عدة مواضع، وهي قوله تعالى:

١ ــ ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (البقرة: ١٣). فقوله: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي، أي لا يرغب عن ملّة إبراهيم إلا السفيه. والجملة واردة لتوبيخ الكافرين. فلا يرغب أحد عن ملّة إبراهيم إلا شخص أذلّ نفسه واستخفّ بها لأنّ من يترك الخير والحق والهدى فقد امتهن نفسه وأذلّها. (الزحيلي، ١٩٩١ : ٣١٦/١)

٢ ــ ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (البقرة : ١٣٥) أي لا نريد ما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ملّة إبراهيم حنيفاً[1] مستقيماً مخلصاً (ابن كثير، ٢٠٠٢ : ٣٢٥/١)

٣ــ ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

(ال عمران : ٩٥) أي اتّبعوا ملّة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد

---

(١) الحنيف: هو المائل عن الشرك قصداً أي تاركاً له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكليته، لا يصده عنه صاد، ولا يرده عنه راد (ابن كثير، ٢٠٠٢ : ٨٢٦/١)

Prince of Songkla University Pattani Campus

ﷺ فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، وهي الطريقة التي لم يأت نبيّ بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتمّ. (ابن كثير، ٢٠٠٢ : ٥٨٥/١)

٤ ــ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (النساء : ١٢٥) وهم محمّد وأتباعه إلى يوم القيامة. (ابن كثير، ٢٠٠٢ : ٨٢٦/١)

٥ ــ ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام : ١٦١) يقول تعالى آمراً نبيّه ﷺ أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهو الدين القيّم ملّة إبراهيم. (ابن كثير، ٢٠٠٢ : ١١٤٢/٢)

٦ ــ ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ * وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يوسف: ٣٧-٣٨) أي هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأعرض عن طريق الظالمين فإنه يهدي قلبه ويعلّمه مالم يكن يعلمه، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد. (ابن كثير، ٢٠٠٢ : ١٥١٠/٢)

٧ ــ ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل: ١٢٣) أي ومن كماله وعظمته وصحّة توحيده وطريقه، أنّا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيّد الأنبياء أن اتبع ملّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين. (ابن كثير، ٢٠٠٢ : ١٦٥٩/٢) . وليس يلزم من كونه عليه السلام أُمر باتباع ملّة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها، لأنه قام بها قياماً عظيماً،

Private of Semarang Al Niversity Pattimi Campus

وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال، ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيّد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام . (ابن كثير، ٢٠٠٢ : ١١٤٣/٢)

٨ ــ ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (الحج : ٧٨) أي إلزموا ملّة أبيكم إبراهيم. والمعنى في هذه الآية كقوله ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (الأنعام : ١٦١).

وقد تأتي كلمة «الملّة» في السنة النبوية في عدة مواضع ، منها:

١ ــ حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيّب عن أبيه قال لمّا حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أميّة بن المغيرة فقال: أي عمّ قل لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أميّة: أترغب عن ملّة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم على ملّة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله. قال : قال رسول الله ﷺ : والله لأستغفرنّ ما لم أنه عنك، فأنزل الله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ (التوبة : ١١٣) وأنزل الله تعالى في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (القصص : ٥٦) (البخاري رقم ٤٧٧٣)

٢ ــ حدّثنا أبو سعيد الأشجّ حدّثنا أبو خالد الأحمر حدّثنا الحجّاج عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان إذا أدخل الميّت القبر وقال أبو خالد مرّة إذا وضع الميّت في لحده قال مرّة : بسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله، وقال مرّة بسم الله وبالله وعلى سنة رسول ﷺ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وقد روى هذا الحديث من غير هذا الوجه عن ابن عمر عن النبي ﷺ ورواه أبو الصدّيق

الناجي عن ابن عمر عن النبي ﷺ وقد روي عن أبي الصديق الناجي عن ابن عمر موقوفا أيضا. (سنن الترمذي رقم ٩٦٧)

٣ ـــ حدثنا محمود بن عيلان حدثنا أبو داود الحفري عن سفيان الثوري عن عبد الرحمن بن زياد الأفريقي عن عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتي أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك وإن بني إسرائيل تفرّقت على ثنتين وسبعين ملّة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملّة كلّهم في النار إلا ملّة واحدة قالوا: ومن هي يا رسول الله ، قال : ما أنا عليه وأصحابي. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب مفسّر لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه. (سنن الترمذي رقم ٢٥٢٦)

٤ ـــ كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال : ((**أَصْبَحْنَا عَلَى مِلّةِ الْإِسْلَامِ ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَدِيْنِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَمِلَّةِ أَبِيْنَا إِبْرَاهِيْمَ حَنِيْفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ**)) (أحمد رقم ٤٠٦/٣، النسائي في اليوم والليلة رقم ٣٤٣,٣,٢,١، الدارمي ٢٩٢/٢)

و«الشريعة» في اللغة، والشرعة: ما سنّ الله من الدّين، وأمر به، كالصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر أعمال البرّ، مشتقّ من شاطئ البحر، عن كراع، ومنه قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة:٤٨) وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الجاثية : ١٨)

«الشّرعة»: الدين، و«المنهاج»: الطريق، وقيل: الشرعة والمنهاج جميعاً: الطريق. والطريق هنا: الدين، لكن اللفظ إذا اختلف أتي به بألفاظ يؤكد بها القصّة والأمر. وقال محمد بن يزيد: «الشرعة» معناها: ابتداء الطريق، و«المنهاج»: الطريق المستقيم، وقال ابن عبا س ـــ رضي الله عنهما ـــ شرعة ومنهاجا: سبيلا وسنّة، وقال

Prince of Songkla University Pattani Campus

قتادة : شرعة ومنهاجا: الدّين الواحد، والشريعة مختلفة، وقال الفراء في قوله ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ ﴾ على دين وملّة ومنهاج. (انظر: ابن منظور، ١٩٩٢ : ١٧٦/٨)

وأمّا «الشريعة» في الاصطلاح: فهي مجموعة الأحكام الشرعية الصادرة عن الشارع. تطلق ويراد بها الأحكام العملية بمقابل الأحكام العقدية، كما قد تطلق ويراد بها جميع الأحكام الشرعية عقديّة كانت أو عمليّة، وذلك بحسب السياق. (البيانوني، ١٩٩٥ : ٤٤)

و«المنهاج» في اللغة: الطريق الواضح ، واستنهج الطريق : صار نهجا ، وفي حديث العباس : ((**لَمْ يَمُتْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ حَتَّى تَرَكَكُمْ عَلَى طَرِيْقَةٍ نَاهِجَةٍ**)) اي واضحة بينة. والمنهاج كالمنهج، وفي التنزيل : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة:٤٨) (ابن منظور، لسان العرب: ٣٨٣/٢).

ومن هذا المعنى اللغوي استحدثت كلمة «المنهاج» بمعنى الخطة المرسومة، ومنها : منهاج الدراسة، ومنهاج التعليم ونحوها. (انظر: معجم الوسيط ص٩٩٥)

وأمّا «المنهج والمنهاج» في الاصطلاح: بأنه النظام والخطة المرسومة للشيء أو الطريق الخاص الذي يوصل إلى الهيئة المعيّنة.

ومن الطبيعي أن تكون المناهج والشرائع متعددة، لأنها أحكام وأوامر ونواهي ، وخطط ونظم وطرق من جهة ، ولتعلقها بجانب العباد الذين تختلف أحوالهم وأوضاعهم زماناً ومكاناً من جهة أخرى، خلافاً للملّة، فإنها لا تتعدد، وذلك لتعلّقها بجانب الله ﷻ الواحد الأحد الصمد.

واعلم أنّ الملّة الكبرى هي ملّة إبراهيم الخليل عليه السلام، وهي الملّة التي دعا إليها محمد ﷺ وأتباعه، وكان إبراهيم حنيفاً، مائلاً عن الأديان المكروهة إلى الدين الحق، وهي الملّة الحنيفية التي لا انحراف فيها ولا اعوجاج، والتي تقابل الصبوة[1]

(١) الصبوة : المراد بها هنا الميل عن الحق

وتقابل التضاد. قال تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (الحج : ٧٨). أي ملّة التوحيد والإنقياد والإخلاص لله، ولا يصحّ لأحد التحوّل عنها. وبها وصّى يعقوب عليه السلام بنيه، ووصى بها من قبله إبراهيم عليه السلام. قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٢).

والشريعة ابتدأت من نوح عليه السلام ، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى : ١٣).

والحدود والأحكام ابتدأت من آدم عليه السلام ، وختمت الشرائع والملل والمناهج بأكملها وأتمّهاحسناً وجمالاً بمحمد ﷺ. قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣) (الشهرستاني، د.ت : ١/٣٨ــ٣٩)

٣,٣ ــ صفة خليل الرحمن

كان وصف خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام شبيهاً برسول الله ﷺ ، وأورد الإمام ابن كثير ــ يرحمه الله ــ بعض الأحاديث النبوية في ذكر صفة إبراهيم عليه السلام (ابن كثير، ١٩٩٦ : ٢٣٤)، فأتيت أكثر من الأحاديث التي ذكرها ابن كثير، منها ما رواه الإمام البخاري، ومنها مارواه الإمام مسلم النيسابوري، ومنها مارواه الإمام الترمذي، ومنها ما رواه الإمام أحمد، وهي:

١ ــ قال الإمام البخاري ــ يرحمه الله ــ : حدّثني محمد بن المثني حدثّنا ابن أبي عدي عن ابن عون بن مجاهد قال كنا عند ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ

فذكروا الدجّال، فقال: إنه مكتوب بين عينيه كافر، قال: فقال ابن عباس ﷺ: لم أسمعه قال ذاك ولكنه قال: أمّا إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فرجل آدم جعد على جمل أحمر مخطوم بخلبة[1] كأنّي أنظر إليه إذا انحدر في الوادي يلبّي (البخاري رقم ٢٤٣)

٢ ــ قال الإمام مسلم ــ يرحمه الله ــ: حدّثنا قتيبة بن سعيد حدّثنا ليث وحدّثنا محمد بن رمح أخبرنا الليث عن أبي الزبير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: ((عرض عليّ الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام فإذا أقرب من رأيتُ به شبهاً عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم يعني نفسه، ورأيت جبريل عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به دحية. وفي رواية ابن رمح دحية بن خليفة)) (مسلم رقم ٢٤٢)

٣ ــ قال أبو عيسى الإمام الترمذي ــ يرحمه الله ــ : حدّثنا قتيبة حدّثنا الليث عن أبي الزبير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: ((عرض عليّ الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم فإذا أقرب الناس من رأيتُ به شبهاً عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم يعني نفسه، ورأيت جبرائيل فإذا أقرب من رأيت به دحية هو ابن خليفة الكلبي. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب)) (الترمذي رقم ٣٥٨٢)

٤ ــ قال الإمام أحمد ــ يرحمه الله ــ : حدّثنا محمد بن أبي عدي عن ابن عون عن مجاهد قال كنّا عند ابن عباس فذكروا الدجال فقالوا: إنه مكتوب بين عينيه ك.ف.ر، قال: ما تقولون؟ قال يقولون مكتوب بين عينيه ك.ف.ر، قال: فقال ابن عباس: لم أسمعه قال ذلك ولكن قال: أما إبراهيم عليه السلام فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى عليه السلام فرجل آدم جعد على جمل أحمر مخطوم بخلبة كأني أنظر إليه إذا انحدر في الوادي يلبّي. (أحمد رقم ٣٥٨٢ وأطرافه: ٢٣٧٢، ٢٥٦٤)

---

(١) خلب ــ بضمّ فسكون ــ: حبل الليف والقطن إذا رقّ وصلب (اللسان : خلب)

٣,٤ ــ مواقف خليل الرحمن

جدول (٥): شجرة مواقف خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام

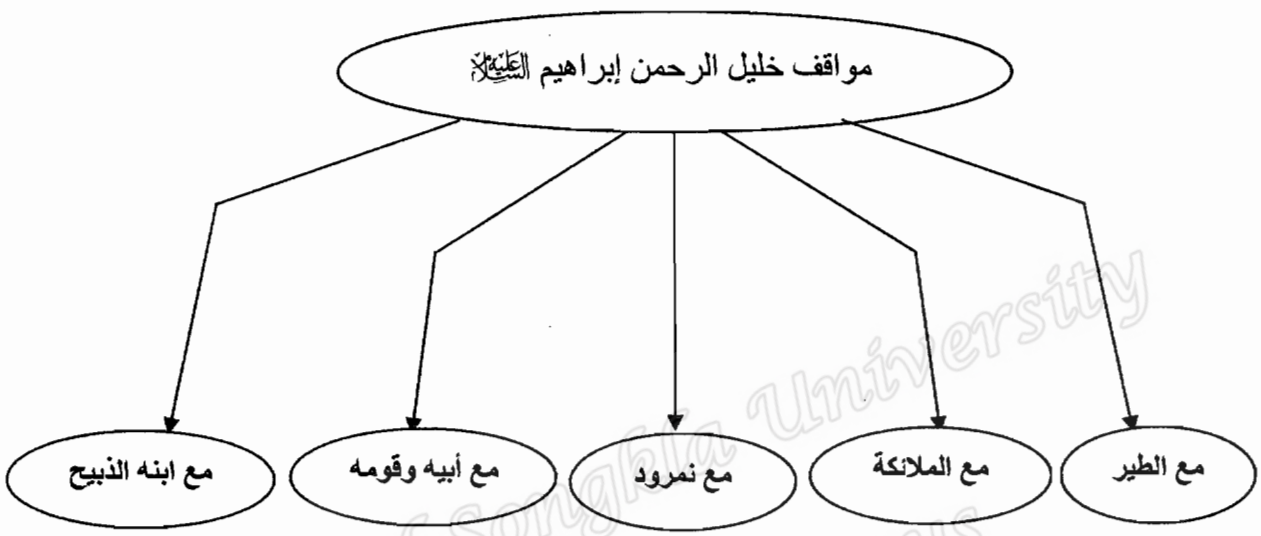

Prince of Songkla University Pattani Campus

وتظهر مواقف خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في عدة مواضع كالتالي:

٣,٤,١ ــ موقف خليل الرحمن مع الطير

أمّا موقفه مع الطير في قصته المشهورة فهو موقف تسكين القلب إلى المعاينة والمشاهدة والازدياد من اليقين إلى اليقين، والترقية من علم اليقين إلى عين اليقين، وكذلك ليعلم الناس بأن الله ﷻ قادر على إحياء الموتي، وإثبات العقيدة والإيمان بالبعث والحياة بعد الموت. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ

ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ (البقرة : ٢٦٠)

ذكر الله تعالى ما أريه خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام عياناً من إحياء الموتي فقال: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ ﴾

اختلفوا في سبب سؤال خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام هذا على وجوه[1]، منها:

أحدها: ما حكاه ابن كثير في تفسيره: أنه لمّا قال لنمروذ ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (البقرة : ٢٥٨) أحبّ أن يترقى من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ ﴾. وأمّا الحديث الذي رواه البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ:** رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي)) (البخاري رقم ٣١٢١، ٤١٧٣، مسلم رقم ٢١٦، ٤٣٦٩، ابن ماجة رقم ٤٠١٦، أحمد رقم ٧٩٧) فليس المراد ههنا بالشّك ما قد يفهمه من لا علم عنده، بلاخلاف. (ابن كثير، ٢٠٠٢ : ١/٤٩٧-٤٩٨)[2]

حكى محمد بن إسحاق بن خزيمة عن أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني أنه قال على هذا الحديث: لم يشكّ النبي ﷺ ولا إبراهيم عليه السلام في أن الله قادر على أن يحيي الموتى، إنّما شكّا في أنه هل يجيبهما إلى ما سألا. وقال أبو سليمان الخطابي ليس

---

(١) انظر: الطبرسي، ١٩٩٧: ٢/١٣٨ ، (الفخر الرازي، ط3 د.ت : ٧/٣٧-٤٢)

(٢) وفي مجمع البيان للطبرسي: أن سبب السؤال منازعة نمروذ إياه في الإحياء إذ قال: أنا أحيي وأميت وأطلق محبوساً وأقتل إنساناً فقال: إبراهيم ليس هذا بإحياء وقال يا رب أرني كيف تحيي الموتى ليعلم نمروذ ذلك. وروي أن نمروذ توعده بالقتل إن لم يحيي الله الميت بحيث يشاهده فلذلك قال ﴿ لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ ﴾ بأن لا يقتلني الجبّار (الطبرسي، ١٩٩٧: ٢/١٣٨)

في قوله : ((**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيْمَ**)) اعتراف بالشكّ على نفسه ولا على إبراهيم، لكن فيه نفي الشكّ عنهما، يقول: إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك، وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس. وكذلك قوله: ((**لَوْ لَبِثْتُ فِيْ السِّجْنِ طُوْلَ مَا لَبِثَ يُوْسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِيْ**)). وفيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك، ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال. وقيل: لمّا نزلت هذه الآية قال قوم: شكّ إبراهيم و لم يشك نبيّنا، فقال رسول الله ﷺ هذا القول تواضعاً منه وتقديماً لإبراهيم عليه السلام على نفسه. (البغوي، ١٩٨٥: ١/٣٧٥)

وثانيها: ما قاله الحسن والضحاك وقتادة وعطاء وابن جريج هو المروي عن أبي عبد الله أنه رأى جيفة تمزّقها السباع فيأكل منها سباع البر وسباع الهواء ودواب البحر فسأل الله إبراهيم فقال: يا رب قد علمت أنك تجمعها من بطون السباع والطير ودواب البحر فأرني كيف تحييها لأعاين ذلك (الطبرسي، ١٩٩٧: ٢/١٣٨) وفي تفسير الكبير: أنه رآي جيفة مطروحة في شط البحر فإذا مد البحر أكل منها دواب البحر، وإذا جزر البحر جاءت السباع فأكلت، وإذا ذهبت السباع جاءت الطيور فأكلت وطارت، فقال إبراهيم: رب أرني كيف تجمع أجزاء الحيوان من بطون السباع والطيور ودواب البحر، فقيل: أو لم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن المطلوب من السؤال أن يصير العلم بالاستدلال ضروريا. (الفخر الرازي، ط٣ (د.ت): ٤/١)

وثالثها: ما روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي أن الملك بشّر إبراهيم عليه السلام بأن الله قد اتخده خليلاً وأنه يجيب دعوته ويحيي الموتى بدعائه فسأل الله تعالى أن يفعل ذلك ليطمئن قلبه بأنه قد أجاب دعوة واتخذه (الفخر الرازي، ط٣ (د.ت): ٤/١) قال سعيد بن جبير: "لما اتخذ الله تعالى إبراهيم خليلاً سأل ملك الموت ربه أن يأذن له فيبشّر إبراهيم بذلك، فأذن له ، فأتى إبراهيم و لم يكن في الدار، فدخل داره، وكان إبراهيم عليه السلام أغير الناس، إذا خرج أغلق بابه، فلما جاء وجد في داره

رجلاً. فثار عليه ليأخذه وقال له: من أذن لك أن تدخل داري؟ فقال: أذن لي ربّ هذا الدار. فقال إبراهيم: صدقت وعرف أنه ملك، فقال : من أنت ؟ قال : أنا ملك الموت، جئت أبشّرك بأن الله تعالى قد اتخذك خليلاً ، فحمد الله ﷻ. قال: فما علامة ذلك؟ قال: أن يجيب الله دعاءك، ويحيي الله الموتى بسؤالك، فحينئذ قال إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ إنك اتخذتني خليلاً ونجيتني إذ دعوتك. (البغوي، ١٩٨٥: ١/٣٧٤)

ورابعها: أنه أحبّ أن يعلم ذلك علم عيان بعد أن كان عالماً به من جهة الاستدلال والبرهان لتزول الخواطر ووساوس الشيطان وهذا أقوى الوجوه. (الطبرسي، ١٩٩٧: ٢/١٣٨)

وخامسها: أنّه أمر بذبح الولد فسارع إليه ثم قال: أمرتني أن أجعل ذا روح بلا روح ففعلت، وأنا أسألك أن تجعل غير ذي روح روحانياً، فقال: أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي على أنك اتخذني خليلاً.

أمر الله خليل الرحمن إبراهيم ﷺ أن يأخذ أربعة من الطيور ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ (البقرة : ٢٦٠) اختلف العلماء في أسماء الطيور التي اختارها إبراهيم ﷺ للقيام بتجربته إلا أن ذلك لايهمنا ولكن الأهمّ هو رحابة التجربة وعظمتها وهيبتها لنعتبر، ألسنا من أولى الألباب؟!

اختلف المفسّرون في هذه الأربعة: ما هي وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مهتمّ لنص عليه القرآن.

فروي عن ابن عباس ﷺ أنه قال: هي الغرنوق، والطاووس والديك والحمامة.

وعنه أيضاً: أنه أخذ وزاً، ورألاً ـــ وهو فرخ النعام ـــ وديكاً، وطاووساً.

وقال مجاهد وعكرمة: كانت حمامة، وديكاً، وطاووساً، وغراباً. (ابن كثير، ٢٠٠٢: ١/٤٩٨)

وحكي عن ابن عباس ﷺ، ونسراً بدل الحمامة.

وقال عطاء الخراساني أوحي إليه أن خذ بطة خضراء، وغراباً أسود، وحمامة بيضاء، وديكاً أحمر. (البغوي، ١٩٨٥: ١/٣٧٦) .

ثم أمر الله تبارك وتعالى إبراهيم عليه السلام أن يذبح تلك الطيور وينتف ريشها ويقطعها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها بعضها ببعض ففعل، ثم أمره أن يجعل أجزاءها على الجبال ﴿ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ﴾ (البقرة : ٢٦٠). واختلفوا في عدد الأجزاء والجبال، فقال ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ وقتادة: أمر أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء، ويجعلها على أربعة أجبل، على كل جبل ربعاً من كل طائر. وقيل: جبل على جانب الشرق، وجبل على جانب الغرب، وجبل على الشمال، وجبل على الجنوب. وقال ابن جريج والسدي: جزأها سبعة أجزاء، ووضعها على سبعة أجبل، وأمسك رؤوسهن ثم دعاهن فقال: تعالين بإذن الله. فجعلت كل قطرة من دم طائر تطير إلى القطرة الأخرى، وكل ريشة تطير إلى الريشة الأخرى، وكل عظم يصير إلى العظم الآخر، وكل بضعة تصير إلى الأخرى، وإبراهيم عليه السلام ينظر حتى لقي كل جثّة بعضها بعضاً في الهواء بغير رأس ، ثم أقبلن إلى رؤوسهن سعياً، فكلّما جاء طائر مال برأسه، فإن كان رأسه دنا منه وإن لم يكن تأخر، حتى التقى كل طائر برأسه، فذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗا ﴾ (البقرة: ٢٦) (البغوي، ١٩٨٥: ١/٣٧٦) .

لماذا اختار الله سبحانه الطيور من دون سائر الحيوانات في هذه التجربة الربانية في إثبات العقيدة والإيمان بالحياة بعد الموت؟! يقول الرازي يرحمه الله: "إن الطيور أوضح في أن ترى محلّقة في السماء فتكون حكمتها أوقع في النفس وأبلغ" ولهذا فإن الله ﷻ ضرب لنا مثل قدرته في إمساك الطير في كبد السماء ﴿ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴾ (الملك: ١٩) فإن الطير ضعيف إلا بقدرة الله

سبحانه، والطير عجيب في طيرانه، عظيم في نظامه ورقته ودقته. ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (النور: ٤١)

ولقد توصل العلم الحديث إلى أن كل طائر عندما يطير يضرب بجناحيه ليعطي دفعة إلى أعلى للطائر الذي يليه مباشرة وعلى ذلك فما يمكّن سرب الطيور من أن تقطع مسافة إضافية تقدر بزيادة ٧١% عن المسافة التي يمكن أن يقطعها فيما لو طار كل طائر بمفرده. فمن علّم الطير هذا؟ لذا كان اختيار الطير وسيلة حسية مرئية تدل على عظمة الخالق اتخذها إبراهيم عليه السلام أمر من ربه سبحانه ليظهر الله عظمة الخلق والإعجاز والقدرة على كل شيء ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٩)

ومن هنا تبيّن لنا أنّ موقف خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في قصته مع الطير هو موقف تسكين القلب وترقية اليقين إلى عين اليقين. وقد كان يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علماً يقيناً لا يحتمل النقيض ولكن أحبّ أن يشاهد ذلك عياناً ويترقّى من علم اليقين إلى عين اليقين. فأجابه الله عز وجل على سؤاله وأعطاه غاية مأموله. وهذه التجربة الربانية واضحة في إثبات العقيدة والإيمان بالحياة بعد الموت.

Prince of Songkla University Pattani Campus

٣,٤,٢ــ موقف خليل الرحمن مع الملائكة

لمّا استجاب الله دعاء نبيّ الله لوط عليه السلام وحقّق له ما طلب فبعث ملائكته إلى أهل تلك القرية التي أفسدت حياتها ودمرت إنسانيتها بمسلكها الشائن، وخصالها القبيحة. بعث الله ملائكته إليهم ليترلوا بهم ما هم أهل له من العقاب، فترلوا أوّلاً بدار إبراهيم عليه السلام على هيئة أضياف. كان إبراهيم جالساً لوحده، في هذه اللحظة، هبطت على الأرض أقدام ثلاثة من الملائكة: جبريل وإسرافيل وميكائيل. يتشكلون في صور

بشرية من الجمال الخارق. ساروا صامتين. مهمّتهم مزودجة. المرور على إبراهيم عليه السلام وتبشيره. ثم زيارة قوم لوط ووضع حد لجرائمهم.

سار الملائكة الثلاثة قليلا، ثمّ ألقى أحدهم حصاة أمام إبراهيم. رفع إبراهيم رأسه، تأمّل وجوههم، لا يعرف أحداً منهم، بادروه بالتحية، قالوا: سلاماً قال: سلام. نهض إبراهيم ورحّب بهم، أدخلهم بيته وهو يظنّ أنهم ضيوف وغرباء. أجلسهم واطمأن أنهم قد اطمأنوا، ثم استأذن وخرج، راغ إلى أهله.

نهضت زوجته سارة حين دخل عليها. كانت عجوزاً قد أبيض شعرها و لم يعد يتوهّج بالشباب فيها غير وميض الإيمان الذي يطل من عينيها.

قال إبراهيم لزوجته: زارنا ثلاثة غرباء.

سألته: من يكونون؟

قال: لا أعرف أحداً فيهم، وجوه غريبة على المكان، لا ريب أنهم من مكان بعيد، غير أنّ ملابسهم لا تشي بالسفر الطويل. أي طعام جاهز لدينا؟

قالت: نصف شاة.

قال وهو يهمّ بالانصراف: نصف شاة، اذبحي لهم عجلاً سميناً ، هم ضيوف وغرباء. ليست معهم دواب أو أحمال أو طعام، ربّما كانوا جوعى وربما كانوا فقراء.

اختار إبراهيم عجلاً سميناً وأمر بذبحه، فذكروا عليه اسم الله وذبحوه. وبدأ شواء العجل على الحجارة الساخنة، وأعدت المائدة، ودعا إبراهيم عليه السلام ضيوفه إلى الطعام، وأوقف زوجته في خدمتهم زيادة في الإكرام والحفاوة، ووضع العجل المشوي أمام الضيوف. أشار إبراهيم بيده أن يتفضّلوا باسم الله، وبدأ هو يأكل ليشجعهم. كان إبراهيم كريماً يعرف أنّ الله لا يتخلى عن الكرماء وربما لم يكن في بيته غير هذا العجل، وضيوفه ثلاثة ونصف شاة يكفيهم ويزيد، غير أنه كان سيداً عظيم الكرم. راح إبراهيم عليه السلام يأكل ثم استرق النظر إلى ضيوفه ليطمئن أنهم يأكلون. لاحظ أنّه لا أحد يمد يده إلى الطعام. قرب إليهم الطعام وقال: ألا تأكلون؟ عاد إلى طعامه ثم اختلس إليهم نظرة فوجدهم لا يأكلون، رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام. عندئذ

Prince of Songkla University Pattani Campus

(أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً). في تقاليد البادية التي عاش فيها إبراهيم عليه السلام ، كان معنى امتناع الضيوف عن الأكل أنهم يقصدون شراً بصاحب البيت. ولاحظ إبراهيم بينه وبين نفسه أكثر من ملاحظة تؤيد غرابة ضيوفه. لاحظ أنهم دخلوا عليه فجأة، لم يرهم إلا وهم عند رأسه، لم يكن معهم دواب تحملهم، لم تكن معهم أحمال، وجوههم غريبة تماماً عليه. كانوا مسافرين وليس عليهم أثر لتراب السفر، ثم ها هو ذا يدعوهم إلى طعامه فيجلسون إلى المائدة ولا يأكلون. ازداد خوف إبراهيم. رفع نظره فوجد امرأته سارة تقف في نهاية الحجرة. حاول أن يقول لها بنظراته أنه خائف من ضيوفه، فلم تفهم المرأة، وفكّر إبراهيم في رجاله وخدمه وقومه، إن عدد الضيوف ثلاثة وهم في مقتبل الشباب، وهو رجل عجوز وشيخ. كان الملائكة يقرءون أفكاره التي تدور في نفسه، دون أن يشي بها وجهه. قال له أحد الملائكة: (لاَ تَخَفْ). رفع إبراهيم رأسه وقال بصدق عظيم وبراءة: اعترف إنني خائف. لقد دعوتكم إلى الطعام ورحبت بكم، ولكنكم لا تمدون أيديكم إليه. هل تنوون بي شرًّا؟ ابتسم أحد الملائكة وقال: نحن لا نأكل يا إبراهيم. نحن ملائكة الله وقد أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ضحكت زوجة إبراهيم كانت قائمة تتابع الحوار بين زوجها وبينهم، فضحكت.

التفت إليها أحد الملائكة وبشرها بإسحاق. يبشرك الله بإسحاق. صكت العجوز وجهها تعجبا، وقالت: يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـــذَا بَعْلِي شَيْخًا عاد أحد الملائكة يقول لها: وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ جاشت المشاعر في قلب إبراهيم وزوجته، شف جو الحجرة وانسحب خوف إبراهيم واحتل قلبه نوع من أنواع الفرح الغريب المختلط. كانت زوجته العاقر تقف هي الأخرى وهي ترتجف، إن بشارة الملائكة تهز روحها هزا عميقا. إنها عجوز عقيم وزوجها شيخ كبير، كيف، وكيف يمكن؟ وسط هذا الجو الندي المضطرب تساءل إبراهيم: أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ أكان يريد أن يسمع البشارة مرة أخرى؟ أكان يريد أن يطمئن قلبه ويسمع للمرة الثانية منة الله عليه؟ أكان ما بنفسه شعورا بشريا يريد أن يستوثق؟ ويهتز بالفرح مرتين بدلا من مرة واحدة؟ أكد له الملائكة أنهم بشروه بالحق. قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ

بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ لم يفهم الملائكة إحساسه البشري، فنوه عن أن يكون من القانطين، وأفهمهم أنه ليس بقانط، إنما هو الفرح. كان ردّ الفعل على زوجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مدهشا، عادت للمرة الثانية تتدخل في الحديث. تساءلت بين الذهول والدهشة: أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـــذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـــذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ رد الملائكة: قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ لم تكن البشرى شيئا بسيطا في حياة إبراهيم وزوجته. لم يكن لإبراهيم غير ولد واحد هو إسماعيل، تركه هناك بعيدا في الجزيرة العربية، ولم تكن زوجته سارة قد أنجبت خلال عشرتها الطويلة لإبراهيم، وهي التي زوجته من جاريتها هاجر. ومن هاجر جاء إسماعيل. أما سارة، فلم يكن لها ولد. وكان حنينها إلى الولد عظيما، لم يطفئ مرور الأيام من توهجه. ثم دخلت شيخوختها واحتضر حلمها ومات. كانت تقول: إنها مشيئة الله عز وجل.

هكذا أراد الله لها، وهكذا أراد لزوجها، ثم ها هي ذي في مغيب العمر تتلقى البشارة، ستلد غلاما. ليس هذا فحسب، بشرتها الملائكة بأن ابنها سيكون له ولد تشهد مولده وتشهد حياته. لقد صبرت طويلا ثم يئست ثم نسيت، ثم يجيء جزاء الله مفاجأة تمحو هذا كله في لحظة. فاضت دموعها وهي تقف، وأحس إبراهيم عليه الصلاة والسلام بإحساس محير، جاشت نفسه بمشاعر الرحمة والقرب، وعاد يحس بأنه إزاء نعمة لا يعرف كيف يوفيها حقها من الشكر، وخر إبراهيم ساجدا على وجهه.

إن ابنه إسماعيل هناك بعيدا منه ولا يراه. وهو موجود هناك بأمر الله، أمره الله أن يحمله مع أمه ويتركهما في واد غير ذي زرع وماء. هكذا بغير تفسير أو إيضاح. وصدع إبراهيم بالأمر، وعاش يدعو الله وحده. والآن، فان الله ﷻ يبشره بعد شيخوخته أنه سينجب إسحق من سارة، ومن بعده يعقوب. انتهى الأمر واستقرت البشرى في ذهنهما معا، نهض إبراهيم من سجوده فوقعت عينه على الطعام. أحس أنه لا يستطيع أن يستمر في الأكل من فرط فرحته، أمر خدمه أن يحملوا الطعام والتفت إلى الملائكة.

ذهب عنه خوفه، واطمأنت حيرته، وغادره الروع، وسكنت قلبه البشرى التي حملوها إليه. وتذكر أنهم أرسلوا إلى قوم لوط، ولوط ابن أخيه النازح معه من مسقط رأسه، والساكن على مقربة منه، وإبراهيم يعرف معنى إرسال الملائكة إلى لوط وقومه. هذا معناه وقوع عذاب مروع، وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودودة لا تجعله يطيق هلاك قوم في تسليم، ربّما رجع قوم لوط وأقلعوا وأسلموا أجابوا رسولهم.

وبدأ إبراهيم يجادل الملائكة في قوم لوط. حدثهم عن احتمال إيمانهم ورجوعهم عن طريق الفجور، وأفهمه الملائكة أن هؤلاء قوم مجرمون. وأن مهمتهم هي إرسال حجارة من طين مسومة من عند ربك للمسرفين، وعاد إبراهيم بعد أن سد الملائكة باب هذا الحوار، عاد يحدثهم عن المؤمنين من قوم لوط. سألهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قال الملائكة: لا، فراح ينقص من عدد المؤمنين ويسألهم أيهلكون القرية وفيها هذا العدد من المؤمنين.

ردّته الملائكة بقولهم: نحن أعلم بمن فيها، ثم أفهموه أن الأمر قد قضي، وإن مشيئة الله تبارك وتعالى قد اقتضت نفاذ الأمر وهلاك قوم لوط. أفهموا إبراهيم عليه السلام أن عليه أن يعرض عن هذا الحوار ليوفر حلمه ورحمته. لقد جاء أمر ربه وتقرر عليهم (عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ) عذاب لن يرده جدال إبراهيم. هذا النبي الحليم الأواه المنيب. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ * يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ

أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (هود: ٦٩ــ٧٥) كانت كلمة الملائكة إيذاناً بنهاية الجدال (قصص الأنبياء – عالم النور (border=0 "IMGSRC="http://www.montadalakii.com/ubb/smilies/cwm15.gif

سكن قلب إبراهيم وهدأت نفسه من الروع ببشرى الملائكة، ثم عرف منهم ما أنيط بهم من مهمّة سحق قوم لوط، وتدميرهم، فروعه الأمر وحزن للخطب، فأخبرهم أن لوطاً بقرية هؤلاء القوم، وتوجهت الملائكة إليهم، وأخذ يجادلهم في أمر قومه، ويرجو الملائكة تأخير البلاء عنهم، وإرجاء وقوع العذاب عليهم. ولعل الأمل كان يجدوه في إنابة منهم إلى الله، وتوبة مما يرتكبونه من آثام، ويقترفونه من الفواحش، ولعل أيضا قد أحس بما بينه وبين لوط من صلة رحم، ووشائج قربى، فدفعه ذلك إلى أن يطلب من الملائكة المكلفين بإهلاك قوم لوط تأجيل العذاب عليهم، فقد ظنّ أنه لا مناص في أن لوطا سيصيبه ما يصيب القوم من الأذى، وهو المؤمن بالله، المنكر لما يأتونه من الفواحش الساخطة على ما هم متغمسون فيه من خطايا وذنوب.

ولكن الملائكة أمرته ألا يحزن ولا يفزع، وأن يترك أمر هؤلاء المسرفين في العصيان والدنايا والفواحش فهو عليهم بنواياهم في عدم الإنابة إليه، خبير بطوايا نفوسهم التي أصرت على انغماسهم في الفواحش، واستمساكهم بالباطل وفساد الحال، كما أنبأته أن لوطا لن يصيبه مس من أذى، وكذلك أهله سيكونون بمنعزل من الدمار، لكن امرأته فقط هي التي سيصيبها ما يصيب القوم، فقد رضيت أن تتبع هواهم ، واختارت معهم حياة اللهو والفساد والمنكر.

ومما دار من حديث بين إبراهيم والملائكة: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ * قَالَ

إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (العنكبوت:٣١ــ٣٢) (سعد صادق محمد، ١٤٠:١٩٨٢ــ١٤٣)

٣,٤,٣ــ موقف خليل الرحمن مع نمرود

موقف خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام مع نمرود فهو موقف الدعوة بأسلوب المناظرة والمحاجّة لإثبات ربوبيّة الله عزّ وجلّ، وإبطال الدعوى الباطلة. يذكر تعالى مناظرته عليه السلام مع هذا الملك الجبّار المتمرّد الذي ينازع الجليل في إزار العظمة ورداء الكبرياء والدعى لنفسه الربوبيّة، وهو أحد العبيد الضعفاء، فأبطل خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام عليه دليله، وبيّن كثرة جهله وقلّة عقله، وألجمه الحجّة، وأوضح له طريق المحجّة. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٨)

هذا الذي حاجّ إبراهيم في ربّه هو ملك بابل، اسمه نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح (قاله مجاهد). وقال غيره: نمروذ بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين. والكافران: نمروذ وبختنصر. (ابن كثير، ٢٠٠٢ : ٤٩٥/١)

وذكروا أنّ هذا الملك استمرّ في ملكه أربعمائة سنة، ولهذا قال: ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ وكان طغى وبغى وتجبّر وعتا وآثر الحياة الدنيا، ولمّا دعاه خليل

الرحمن إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له، حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع، فحاجّه خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في ذلك، فحاجّ الخليل في وجود ربّه، وأنه أنكر أن يكون ثَمّ إله غيره، وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلاّ تجبّره وطول مدّته في الملك فادعى لنفسه الربوبيّة، وكأنه طلب من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام دليلاً على وجود الربّ الذي يدعو إليه،

فَقَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ : ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾

أي: هو المنفرد بالخلق والتدبير، والإحياء والإماته، فذكر من هذا الجنس أظهرها، وهو الإحياء والإماته. والمقصود أن الله تعالى هو الذي تفرّد بإيجاد الحياة في المعدومات، وردّها على الأموات، وأنه هو الذي يميت العباد والحيوانات بآجالها، بأسباب ربطها وبغير أسباب. فالدليل على وجود الربّ حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها. وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنّها لم تحدث بنفسها، فلا بدّ لها من موجد أوجدها وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له.

قَالَ نمرود : ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾

وعني بذلك أي أقتل من أردت قتله، واستبقى من أردت استبقاءه. قال قتادة، ومحمّد بن إسحاق، والسدي، وغير واحد: وذلك أني أوتي بالرجلين قد استحقا القتل، فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة. إن عني أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند، وإن عني ما ذكره قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي

Prince of Songkla University Pattani Campus

فلم يقل شيئاً يتعلّق بكلام الخليل، إذ لم يمنع مقدّمة ولا عارض الدليل.

والظاهر ـــ والله أعلم ـــ أنه ما أراد هذا، لأنه ليس جواباً لما قال خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ولا في معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الفاعل الصانع، وإنّما أراد أن يدّعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل الصانع لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون ـــ لعنة الله ـــ في قوله لملئه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ (القصص: ٣٨)

ولّما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممّن حضره وغيره، ذكر دليلاً آخر بين وجود الفاعل الصانع، وبطلان ما ادعاه النمروذ وانقطاعه جهرة

قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾

أي إذا كنت كما تدعي من أنك أنت الذي تحيي وتميت، فهذه الشمس مسخرة كلّ يوم، تطلع من المشرق كما سخّرها خالقها ومسيرها وقاهرها، وهو الذي لا إله إلا هو خالق كلّ شيء ، فإن كنت إلهاً كما ادّعيت تحيي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب؟ فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب، بل قهر كل شيء ودان له كل شيء ، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت وادّعيت، وأنت تعلم أنك لا تقدر على شيء من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة.

Prince of Songkla University Pattani Campus

فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بُهت: أي أخرس فلا يتكلّم وقامت عليه الحجّة. فبيّن ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه وتبجّح به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به، بل انقطع وسكت، ولهذا قال ﷻ: ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لا يلهمهم حجّة ولا برهان، بل حجّتهم داحضة عند ربّهم، وعليهم غضب ولهم عذاب.

وليس هذا من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام انتقالاً من دليل إلى آخر وإنّما إلزام النمروذ بطرد دليله إن كان صادقاً، وأتى بهذا الذي لا يقبل بالترويج والتزوير والتمويه. فجميع الأدلّة: السمعية ، والعقلية، والفطرية، قد قامت شاهدة بتوحيد الله معترفة بانفراده بالخلق والتدبير وأن من هذا شأنه لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكره إلا بعد معاند مكابر، مماثل لهذا الجبّار العنيد، فهذا من أدلّة التوحيد.

وقد اختلفوا في موعد وقوع المناظرة بين خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وبين هذا الملك المتمرّد: متى تحدث تلك المناظرة؟ وهل تكون بعد خروجه عليه السلام من النار أم قبل ذلك؟ أو تكون في أي وقت شاء.

وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمروذ بعد خروجه عليه السلام من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم، فجرت بينهما هذه المناظرة. وقد روى عبد الرزّاق عن معمر عن زيد بن أسلم: أن النمروذ كان عنده طعام، وكان الناس يغدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شيء من

Prince of Songkla University Pattani Campus

الطعام. فلمّا قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال: أشغل أهلي عني إذا قدمت عليهم، فلمّا قدم وضع رحاله، وجاء فاتكأ فنام. فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيّباً، فعملت منه طعاماً. فلمّا استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه ، فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذي جئت به. فعرف أنه رزق رزقهموه الله ﷻ.

قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبّار ملكاً يأمر بالإيمان بالله فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى، وقال : اجمع جموعك وأجمع جموعي، فجمع النمروذ جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، وأرسل الله عليهم باباً من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاماً بادية، ودخلت واحدة منها في منخري الملك، فمكثت في منخري الملك، فمكثت في منخريه أربعمائة سنة، عذّبه الله بها، فكان يضرب رأسه بالمرازب في هذه المدة كلّها حتّى أهلكه الله ﷻ بها (ابن كثير، ٢٠٠٢ : ١/٤٩٥ــ٤٩٦، وابن كثير، ١٩٩٦ : ١٨٤ــ١٨٦).

٣,٤,٤ــ موقف خليل الرحمن مع أبيه وقومه

كان عقل إبراهيم عليه السلام مضيئاً منذ طفولته، أضاء الله قلبه وعقله وآتاه الحكمة منذ طفولته. أدرك إبراهيم عليه السلام وهو طفل أن أباه يصنع تماثيل غريبة، وسأله يوماً عمّا يصنع، فأخبره أنّها تماثيل الآلهة، ودهش إبراهيم عليه السلام وأحسّ داخل عقله بالرفض. كان يلعب وهو طفل بهذه التماثيل ويمتطي ظهورها مثلما يمتطي الناس ظهور الحمير والبغال. وشاهده أبوه يوما يركب ظهر أحد تمثال، وغضب الأب وأمره ألا يلعب بهذا التمثال مرة ثانية.

سأل إبراهيم : أي تمثال هذا يا أبي؟ إن أذنيه كبيرتان أكبر من آذاننا.

Prince of Songkla University Pattani Campus

قال أبوه : إنه مردوخ رب الأرباب يا ولدي، وهاتان الأذنان الكبيرتان ترمزان إلى فهمه العميق. ضحك إبراهيم بينه وبين نفسه، وكان عمره سبع سنين.

يحدثنا القديس برنابا على لسان عيسى كيف سخّر إبراهيم عليه السلام من أبيه وهو طفل. يقول: إنّ إبراهيم سأل والده يوما؛

قال إبراهيم : من صنع الإنسان يا أبي؟

قال الأب: الإنسان، لأني أنا صنعتك وأبي صنعني.

أجاب إبراهيم: ليس الأمر كذلك يا أبي. لأني سمعت شيخاً ينتحب ويقول: يا إلهي. لماذا لم تعطني أولاداً؟

قال الأب: حقاً يا بنيّ، الله يساعد الإنسان ليصنع إنساناً، ولكنه لا يضع يده فيه.

قال إبراهيم: كم إلهاً هناك يا أبي؟

أجاب الشيخ: لا عدد لهم يا بنيّ.

قال إبراهيم: ماذا أفعل يا أبي إذا خدمت إلهاً وأراد بي الآخر شراً لأني لم أخدمه؟ ماذا لو وقع شقاق وخصام بين الآلهة؟ ماذا لو قتل الإله الذي يريد بي شراً إلهي؟ ماذا أفعل؟ من المؤكد أنه يقتلني أنا أيضا.

أجاب الشيخ ضاحكاً: لا تخف يا بنيّ لأنه لا يخاصم إله إلها آخر. في الهيكل الكبير ألوف من الآلهة مع الإله الكبير بعل، وقد بلغت الآن سبعين سنة من العمر ومع ذلك لم أر إلهاً قط ضرب إلهاً آخر.

قال إبراهيم: إذن يوجد وفاق بينهم.

أجاب أبوه: نعم يوجد.

قال إبراهيم: من أي شيء تصنع الآلهة؟

قال الشيخ: هذا من خشب النخل، وذاك من الزيتون، وذلك التمثال الصغير من العاج. انظر ما أجمله، حقاً لا ينقصه إلا التنفس.

Prince of Songkla University Pattani Campus

قال إبراهيم: إذا لم يكن للآلهة نفس فكيف يهبون الأنفاس؟ وإذا لم تكن لهم حياة فكيف يعطون الحياة؟ من المؤكد يا أبي إن هؤلاء ليسوا هم الله! حنق الشيخ لهذا الكلام وقال ثائراً: لو كنت بالغاً من العمر ما تتمكن معه من الإدراك لشججت رأسك بهذه الفأس.

قال إبراهيم: يا أبي، إن كانت الآلهة تساعد على صنع الإنسان فكيف يتأتى للإنسان أن يصنع آلهة؟ إذا كانت الآلهة مصنوعة من الخشب فإن إحراق الخشب خطيئة كبرى. ولكن قل لي يا أبت، كيف وأنت تساعد الآلهة وتصنع منها أعداداً هائلة، كيف لم تساعدك الآلهة لتصنع أولاداً كثيرين فتصير أقوى رجل في القرية؟

انتهى الحوار بينهما بأن مد الأب يده وضرب إبراهيم عليه السلام. ومرت الأيام. وكبر إبراهيم عليه السلام. كان قلبه يمتلأ من طفولته بكراهية صادقة لهذه التماثيل التي يصنعها والده. لم يكن يفهم كيف يمكن لإنسان عاقل أن يصنع بيديه تمثالا، ثم يسجد بعد ذلك لما صنع بيديه. لاحظ إبراهيم إن هذه التماثيل لا تشرب ولا تأكل ولا تتكلم ولا تستطيع أن تعتدل لو قلبها أحد على جنبها. كيف يتصور الناس أن هذه التماثيل تضر وتنفع؟! عذبت هذه الفكرة إبراهيم طويلا. أيمكن أن يكون كل قومه على خطأ، وهو وحده على الحق؟ أليس هذا شيئا مدهشا

وكان آزر ـــ والد إبراهيم عليه السلام ـــ يعيش مع القوم في فساد عقائدهم وعبادته آلهتهم فجعل إبراهيم عليه السلام يخاطب أباه وقومه ويسألهم ـــ في تعجب ودهشة ـــ ما هذه التماثيل التي تعكفون على عبادتها وتنصرفون إليها لتقديسها؟

لم يبادر إبراهيم عليه السلام بتسفيه معبودات أبيه لكي لا يشعر بالنفور فيتهمه بالعقوق، بل خاطبه بأدب النبوة الرحيمة. ومراعاة حقوق الأبوة، فرتب الكلام معه في لين وأدب جميل. بدأ حديثه معه بذكر نبوته له ليحرك في قلبه عطفه ومن نفسه حبه، ثم سأله عما يجعله يتشبث بعبادة الأصنام. ويدعوه إلى الحرص على دعائها بينما هي لا تسمع رجاء طالب أو ثناء مادح شاكر، ولا تملك أن تنفعه أو تضره بشيء.

Bahauddin Zakariya University Multan Campus

ثم خشي إبراهيم عليه السلام أن يستعفر أبوه ، أو يمتهن رأيه، ويسفه فكره، فقال له ما معناه: يا أبت إنه وإن كنت أنا ولدك، و لم أشارف سنك إلا أنه فد جاءني من العلم ما لم تعلمه أنت ولا جاءك فلا تتخلف عن متابعتي، ولا تستكبر عن مسايرتي، ففي أتباعك لخطواتي، وسلوكك سبيلي هداية لك إلى الصراط المستقيم، والطريق القويم، ومناجاة لك من غضب إليه، ثم رجاه وهو يواصل مخاطبته ـــ باسم النبوة الرحيمة أن يبتعد عن طريق الأوثان، وأن يكف عبادة الشيطان والانقياد لما يزينه له من باطل القول وسيء العمل، فإنه عدو لا يرشد إلى خير. ولا يبتغي إلا إيقاع الناس في الشر وإهلاكهم، فقد عصى ربه فطرده وأبعده عن رحمته. فتوعد الناس بالأغواء والضلالة فلا تتبعه، ثم أبان إبراهيم عليه السلام لأبيه مخوفاً منذراً ـــ ما ينتظره من سوء العاقبة وشر المصير باغراضه عن طريق الله واتخاذه الشيطان ولياً له ونصيراً من دون الله.

لكن أباه آزر كبر عليه أن يتابع ابنه، وأصر على عناده، وصمم على كفره. وتجاهل نبوته وأنكر اشفاقه به، ونصحه له، وبفظاظه العناد والنطرسة، وغلظة الكفر والجحود، أقبل آزر على ابنه إبراهيم عليه السلام بوجه قبحه وخاطبه في تعجب واحتقار. إن كنت راغباً ـــ يا إبراهيم ـــ عن آلهتي، كارهاً لها، حاقداً عليها، فارجع عن سبها وعيبها. فإنك إن لم تكف عن هذا وتثوب إلى رشدك لأرجمنك بالحجارة. فابتعد يا إبراهيم عني ، واحذر سخطي، وتجنب إثارة غضبي واهجرني قبل أن يصيبك شيء من عقوبتي. فلن تجد في قلبي بعد الآن بقية من عطف أو أثارة من حب وإحسان. (سعد صادق، ١٩٨٢: ١١٦ ـــ ١١٨)

٣,٤,٥ـــ موقف خليل الرحمن مع ابنه الذبيح

كان موقف إبراهيم عليه السلام في قصة ذبحه لابنه عليه السلام فهو موقف ابتلاء وامتحان، فتنٌ تتلوها فتنٌ، ومحنٌ يأخذ بعضها برقاب بعض بالتوالي وكأن الله ـــ جلّت

Prince of Songkla University Pattani Campus

قُدرتُه ـــ قدّر لهذا النبيّ الكريم، النّازل، أبداً، على حكم قضاء الله ومشيئته، أن يصهره البلاء بعد البلاء، كي يصفو خالصاً من كل شائبةٍ، كالذّهب الإبريز! ولعل أشدّ ما ابتلى الله به خليله النبي إبراهيم عليه السلام، وامتحنه به، أمرُه تعالى أن يذبح وحيدَهُ إسماعيل عليه السلام حكى الله تبارك وتعالى موقف ابتلاء إبراهيم في القرآن الكريم، قال عز وجل:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ * فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصافات : ١٠٢ ـــ ١١١)

انظر كيف يختبر الله نبيه وخليله. تأمّل أي نوع من أنواع الاختبار. نحن أمام نبيّ قلبه أرحم قلب في الأرض. اتّسع قلبه لحبّ الله وحب من خلق. جاءه ابن على كبر، وقد طعن هو في السن ولا أمل هناك في أن ينجب. ثم ها هو ذا يستسلم للنوم فيرى في المنام أنه يذبح ابنه وبكره ووحيده الذي ليس له غيره.

أي نوع من الصراع نشب في نفسه. يخطئ من يظن أنّ صراعاً لم ينشأ قط. لا يكون بلاء مبيناً هذا الموقف الذي يخلو من الصراع. نشب الصراع في نفس إبراهيم عليه السلام، صراع أثارته عاطفة الأبوة الحانية. فكّر إبراهيم لماذا؟! وجاءه الجواب أنه هكذا أراه الله، ورؤيا الأنبياء حق. لقد رأى نفسه في المنام يذبح ولده الوحيد،هذا وحي من الله أن يذبح ولده الوحيد.

وفي الحديث حدّثنا علي ابن عبد الله قال حدّثنا سفيان عن عمرو قال أخبرني كريب عن ابن عباس أن النبي ﷺ نام حتى نفخ ثم صلى وربما قال اضطجع حتى نفخ ثم قام فصلى ثم حدّثنا به سفيان مرة بعد مرة عن عمرو عن كريب عن ابن عباس

Prince of Songkla University Pattani Campus

قال بتّ عند خالتي ميمونة ليلة فقام النبيّ ﷺ من الليل فلما كان في بعض الليل قام النبيّ ﷺ فتوضأ من شيء معلّق وضوءاً خفيفاً يخفّفه عمرو ويقلله وقام يصلي فتوضأت نحواً مما توضّأ ثم جئت فقمت عن يساره وربّما قال سفيان عن شماله فحوّلني فجعلني عن يمينه ثم صلى ما شاء الله ثم اضطجع فنام حتى نفخ ثم أتاه المنادي فآذنه بالصلاة فقام معه إلى الصلاة فصلى و لم يتوضأ ، قلنا لعمرو إن ناسا يقولون إن رسول الله ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه قال عمرو سمعت عبيد بن عمير يقول: رؤيا الأنبياء وحي ثم قرأ ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ (البخاري رقم: ١٣٨)

لماذا أزاحها إبراهيم من تفكيره ، ليس إبراهيم هو الذي يسأل الله لماذا أو لأي سبب. فكّر إبراهيم في ولده. ماذا يقول عنه إذا أرقده على الأرض ليذبحه؟! الأفضل أن يقول لولده ليكون ذلك أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قهراً ويذبحه قهراً. هذا أفضل. انتهى الأمر وذهب إلى ولده:

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾

ونحن نعلم، بأن رؤى الأنبياء حقٌ كلُّها وصدقٌ، فليس للشيطان إلى نفوسهم الزكيّة من سبيلٍ، وإن اسماعيل ليعلمُ ذلك حق العلم، فهو نبيٌّ من خاصّة طينة الأنبياء المجتبين وهو البارُّ بوالديه، الشفوق عليهما في شيخوختهما بحدبٍ وإيثارٍ انظر إلى تلطّفه في إبلاغ ولده، وترك الأمر لينظر فيه الابن بالطاعة ، إن الأمر مقضي في نظر إبراهيم لأنه وحي من ربّه، فماذا يرى الابن الكريم في ذلك، وما ذاك إلاّ ليُلاقي طلبُ الأب رضىً في نفس الابن، واستجابةً له، فلا يجرُّهُ إلى الذّبح – امتثالاً لأمر الله تعالى– قهراً، قسراً. أجاب ولده إسماعيل بن إبراهيم جواب إبراهيم. هذا أمر يا أبي فبادر بتنفيذه:

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

تأمل رد الابن، إنسان يعرف أنه سيذبح فيمتثل للأمر الإلهي ويقدم المشيئة ويطمئن والده أنه سيجده ـــ إن شاء الله من الصابرين ـــ هو الصبر على أي حال وعلى كل حال، وربما استعذب الابن أن يموت ذبحا بأمر من الله ، ها هو ذا إبراهيم يكتشف أن

ابنه ينافسه في حب الله. لا نعرف أي مشاعر جاشت في نفس إبراهيم بعد استسلام ابنه الصابر، لا نعرف.

ينقلنا الحق نقلة خاطفة فإذا إسماعيل راقد على الأرض، وجهه في الأرض رحمة به كيلا يرى نفسه وهو يذبح. وإذا إبراهيم يرفع يده بالسكين، وأمر الله مطاع.

استخدم القرآن هذا التعبير ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ قيل: «أَسۡلَمَا» استسلما لأمر الله وعزم على ذلك. وقيل: وهذا من المقدم والمؤخر. والمعنى «وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ» ألقاه على وجهه. قيل: أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك. وقيل : بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقي طرف جبينه لا صقاً بالأرض. قال السدي وغيره: أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً. ويقال: جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس. والله أعلم. (ابن كثير ١٩٩٦ : ٢٠٣)

هذا هو الإسلام الحقيقي، يعطي كل شيء فلا يتبقى منه شيء. ويطيب إبراهيم نفساً بهذا الابن البارِّ، تفيض عاطفةُ الأب، ويرقُّ قلبُ الابن باستسلامٍ غريبٍ، فيجهشان بالبُكاء! ويضمُّ إبراهيم إسماعيل إلى صدره، قائلاً له، ويدهُ تعبثُ بشعر هذا الفتى بحنانٍ: نعمَ الولدُ أنت يابُنيّ، معيناً على أمر الله، فجزاك الله خير ما يجزي ولداً عن والدِه. ويشُدُّ إبراهيم ابنه وثاقاً. ويستسلم الابنُ للذّبح، على قناعةٍ، ورضىً، وتسليمٍ. وينظرُ إبراهيمُ إلى ولده إسماعيل ملقىً بين يديه، كالنّعجة الوديعة، وإلى السّكين في يدِه، حادةً، رهيفةً، تتلظى مضاءً، لفرط ماشحذ شفرتها إبراهيم. وتفيضُ عبرات الأب، وكأن المذبوح قلبُه، لاابنُه! فمتى كان الأبُ يجزر ابنه الوحي.

ويطلب الابنُ من أبيه، أن يربط عينيه بمنديل، فلا تلتقي منهما النّظرات. إذ للعيون لغة، يقصر عن بعضها بليغ التعبير، ويفعل الأبُ ذلك. ويذكر إبراهيم اسم الله، ويخُزُّ، فلا تفعل السكّينُ! فعل خارت عزيمةُ إبراهيم، أم غاب عن المُديةِ المضاءُ؟ ويطلب إسماعيل من أبيه، ثانيةً، أن يكبّهُ على وجهه، ليذبحه من القفا. فلايرى الألم

على وجهه، وهو يصدعُ بأمر الله. ويفعل إبراهيم ذلك، ويعاود الحزُّ، باسم الله، ولكنّ السكين لاتفري، ولا تقطع، ولايشخب جرحٌ دماً. ويحاول إبراهيم ثالثة، وكأنه ينتهر هذه السّكّين المتمرّدة على الذّبح وألقي في روعه أنّ السّكّين تنطقُ: العبدُ يأمرني، والله ينهاني، ويرتمي إبراهيمُ، فيقتعدُ الأرض، خائراً، يلهثُ، وإنّ جبينه ليرفض عرقاً صبيباً، والسكّينُ في يده. ويتطلّع إلى عالٍ، ينتظر أمر السّماء، وإذا به يرى ملاكاً يتهادى نحوه، نزلاً، إنه جبريلُ عليه السلام، الذي يعرفُهُ جيداً، وقد أمسك كبشاً سميناً[1]، متّجهاً به إليه منادياً إياهُ:

﴿ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

وتناول إبراهيم هذا الكبشَ- القُربان، وأمرَّ السكّين على حلقه، فهوى الكبش يتخبّطُ بدمه، مذبوحاً من الوريد إلى الوريد. وهكذا افتدى الله ابن خليله بكبشٍ سمينٍ. فصار إسماعيلُ "ذبيح الله" كما صارت الضحيّة أحد مناسك حج المسلمين في كلّ عامٍ، حيث تنحر ألوف ألوف الضحايا السّمان، وتُقدّم قرابين، في ذكرى "ذبيح الله" إسماعيل بن إبراهيم ـــ عليهما السلام ـــ.

Prince of Songkla University Pattani Campus

٣,٥ ـــ مهاجرة خليل الرحمن

كان لأول وهلة انطلق تارخ (آزر) بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين فنـــزلوا «حران» فمات فيها أبوه تارخ (آزر).

امتلأت حياة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام من الدعوة إلى الله وحده بالانتقال والهجرة، وذلك شأن الداعية إلى الله في كثير من الأحيان. ثم هاجر عليه السلام في

---

(١) والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن، رآه مربوطا بسمرة في ثبير. قال الثوري : كبش قد رعي في الجنة أربعين خريفاً. وقال سعيد بن جبير: كان يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر. وعن ابن عباس : هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه، وهو الكبش الذي قرّبه ابن آدم عليه السلام فتقبل منه. (ابن كثير، ١٩٩٦: ٢٠٤)

نقلته الأولى إلى مدينة «أور»[1] الكلدانيين، ويبعد عن أبيه ويعتزله بعد أن وجه إليه وإلى قومه أشدّ إنذار وأعنفه، إذ قال لهم : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (العنكبوت: ٢٥) وإنّما كان هذا الإنذار شديداً وعنيفا؛ لأنه كشف لهم دخائلهم السيئة حيث يعبدون الأصنام مجاملة من بعضهم لبعض، فيؤثرون علاقة زائلة على عبادة الله وتوحيده.

ثمّ أعلن أنه مهاجر إلى ربّه لا إلى عرض من أعراض الدنيا، ولا إلى جاه أو سلطان، وقد كافأه الله على هذه النية وتلك الهجرة، بأن وهب له إسحاق ويعقوب وجعل النبوة في عقبه، فهو بحق أبو الأنبياء. قال تعالى: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (العنكبوت: ٢٦ــ٢٧)

قال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ * وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ (الإنبياء: ٧١ــ73)

لما هجر قومه في الله وهاجر من بين أظهرهم وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، وهبه الله ﷻ بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل في ذريته النبوة، فكل نبيّ بعث بعده فهو من ذريته.

---

(١) «أور» هي أور الكلدانيين وهي مدينة كانت قرب الشاطئ الغربي من الفرات.

Prince of Songkla University Pattani Campus

والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام، وهي الأرض التي قال الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الإنبياء: ٧١) قاله أبي بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم. وروى العوفي عن ابن عباس: مكة ، وزعم كعب الأحبار أنها حران.(ابن كثير، ١٩٩٦ : ١٨٧)

تتعدد الدراسات وتختلف من منهج لآخر حول محاولات التتبع التاريخي القديم، وخاصّة حول مصادر البيئة التاريخية للتواجد جمهور الشعب الإنساني في التاريخ. وفي البداية الأولى والمبكرة في العراق حوالي عام ١٨٠٠ ق.م. كانت مجموعات من الرعاة الرحل والمنتسبة تاريخياً لبعض هذه الأفواج التي هاجرت من الصحراء إلى منطقة الهلال الخصيب قد استطاعت أن تستقرّ وتنتشر في العراق لتؤلف دولة يذكرها التاريخ باسم « دولة الكلدانيين » قامت تاريخياً على أساس من علاقات الصراع والقهر اليومي الذي كانت فيه الكثرة الكثيرة من جمهور ذلك الشعب الذي تسمى باسم « كلدان » مضيعة بين أساليب التناقض التي يعمل لها مجموعات من الرجال المتسلطين والمستغلين، وأولئك الذين انتزعوا لأنفسهم كهانة دينية وسيادى سياسية، فخلقوا بهما مظاهر التفاوت الطبقي وعلاقات الاستغلال.

ومن وسط هذا الجو نشأ خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام أول ما يشغل باله ويهزّ مشاعره هو إمكانية أن يصل بمشاعره إلى واقع جديد يرفض صور الغبن الاجتماعي والأخلاقي التي وجدها أمامه عائقا يحول دون أن يتيسّر للفرد « الإنسان » أن يحيا الحياة. فثار خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في أرض « أور » الكلدانية، يحمل على عاتقه مهمّة الدعوة إلى قضية العدل الاجتماعي. ولما أحس الكلدانيون أن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ابتدأ بهذا الرصيد الذي أضيف إلى نفسه يشكل خطراً عليهم وعلى أسلوب حياتهم، خاصة بعد أن ابتدأت جموع كبيرة من جمهور الشعب تسمعه وتتحمس لدعوته بعد أن استشرفت آمالها على يديه، دخل الكهنة والسادة معه في معركة تحديات سافرة أو شكت في بعض مراحلها أن تقضي حياته لولا أنه معدّ من قبل ربه لكي يواصل الطريق.

بعد أن سفّه خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام أحلام القوم وآلهتهم وثار على نظام حياتهم واجه موقفا عنيفا أوشك أن يقض عليه ويقطع عليه الطريق، يعبّر القرآن الكريم صراحة عن هذا الموقف الذي اتخذه القوم ضدّ الخليل إبراهيم عليه السلام بقوله ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء : ٦٨) وهنا أحس الخليل إبراهيم عليه السلام أن الزمن يدور على عكس دورته ومساره ، فمن حيث أتت أفواج ورحلات منذ مئات السنين أصبحت الآن في تقدير بعض المشتغلين بالدراسات السامية القديمة منذ حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م. حين كانت هجرات متوالية. ذهب بعضها إلى الساحل اللبناني واستقرّ حواليه، وعرفوا بـــ« الفينيقيين » وذهب البعض الآخر إلى الجزء المنخفض من أرض بادية الشام على ساحل البحر واستقرّوا فيها وتسموا باسم «الكنعانيين»[1]. وكان على الخليل إبراهيم عليه السلام أن يبدأ رحلته وهجرته سائرًا شمالاً بغرب ثمّ جنوباً بطول الهلال الخصيب حتى وصل هو ومن معه من الذين آثروا أن يرحلوا بما آمنوا به. وأن يتحمّلوا المشاق في سبيله إلى «حوران»[2] ثمّ إلى فلسطين في هجرة مرحلية على دفعات وتوقفات مكثوا خلالها بعض الوقت في فلسطين، المنطقة المعروفة اليوم بحدودها الاقليمية بعد صنيع الاستعمار في المنطقة عقب الحرب العالمية الأولى ما بين ضفة الأردن وسوريا وساحل البحر الأبيض وشبه جزيرة سيناء. وكان إبراهيم عليه السلام بما أقدم عليه من حركة الهجرة هذه حين قدم من أعالي العراق إلى فلسطين بمثل مجموعة من موجات حركة انتقال وارتحال بعض القبائل التي بدأت تنتجع وتنتقل في بادية الشام وسيناء وتسمي باسم «العبرانيين» صفة لهم أو نسبة إلى عبورهم البادية والصحراء أو لعبورهم نهر الأردن أو الفرات وخاصة حين تكون الحاجة شديدة إلى حيث يوجد الحيوان والمرعى فكانت تتمّ حركات هجرة ـــ عبرية ـــ عامة من أعالي البادية تارة إلى أسفلها، أو تأخذ في مرحلة أخرى عكس الطريق، وبهذا المعنى البدوي المرتحل الذي لا يركن إلى أرض بذاتها ولا إلى مكان بعينه إلا بقصد

---

(١) نسبة إلى أرض «كنعان» الأرض المنخفضة أو الأرض الكانعة حسبما تفيد الدلالة اللغوية للفظة «كنعان» في اللغة العربية.

(٢) «حوران» : منطقة بالأردن الآن

هذا المعنى الاقتصادي والذي يمثل قيمة الحياة الاجتماعية وصلب المعيشة ـــ حينئذ ـــ كانت تتم حركات هجرة ـــ عبرية ـــ دائمة ومنتظمة. ولمّا قدم إبراهيم عليه السلام بمن خرج معه في بدء هجرته وبمن آمن به في طريق رحلته إلى أرض فلسطين لم يطب له المقام بها لأسباب كثيرة منها: أن سكان فلسطين حين أقاموا لهم ما يشبه «الممالك» التي تسمت بالفعل « الممالك الكنعانية » كانت هذه الممالك قد قطعت شوطاً في طريق التقدّم الزراعي والصناعي وكان بعض من أهل هذه الممالك تجاراً للسلع التي كانت تنتقل من بلاد ما بين النهرين إلى ساحل البحر الأبيض وبالعكس، بالإضافة إلى أنهم كانوا حراسا للقوافل التي تعبر طريق بلادهم، وقد أقاموا من أجل سلامة هذا العمل والحفاظ عليه المدن المحصنة والاسوار المنيعة، فلمّا جاءهم إبراهيم عليه السلام بدعوة الله ، تلك الدعوة التي كان من أول مبادئها قضية العدل الاجتماعي لم يتقبل الكنعانيون دعوته بالأسلوب الإلهي الذي دعاهم به و لم يقبلوه بينهم ، بعد أن كانوا قد علموا بعض أنباء للقبائل والجماعات العبرية التي كانت قد بدأت تجوب البادية والصحراء، وساءهم ما عليه القوم من صلف وحب للسطو والإغارة فانفوا أن تكون الجماعات العبرية التي لم يتيسر لها أن تستقر في مكان بعينه والتي لما تستطع بعد أن تكسب شيئاً من آداب الاستيطان وتقاليد الحضر بينهم وفيهم من يدعو إلى قيم أو خلق جديد ولذا اعتزلوهم فلما جاء إبراهيم عليه السلام بالدعوة الدينية إلى القوم اعتبر الكنعانيون إبراهيم واحداً من العبرانيين و لم يستجيبوا له تماماً فكان على إبراهيم عليه السلام أن يرتحل سريعاً من على أرض فلسطين إلى حيث يظن أن تتقبل دعوته. (صابر طعيمة، ١٩٨٣ : ٦ــ١٠)

وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه: ((**إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك**)) فابتنى إبراهيم مذبحاً لله شكراً على هذه النعمة وضرب قبته شرقي بيت المقدس ثم انطلق مرتحلاً ، إلى التيمن، وأنه كان جوع، أي قحط وشدة وغلاء، فارتحلوا إلى مصر. وذكروا قصة سارة مع ملكها، وأن إبراهيم قال لها:

Prince of Songkla University Pattani Campus

قولي "أنا أخته". وذكروا خدام الملك إياها هاجر، ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن يعني أرض بيت المقدس وما والاها، ومعه دواب وعبيد وأموال.

قال: ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار ، من هذه معك؟ قال : أختي، قال: فأرسل بها، قال فأرسل بها إليه، وقال: لا تكذبي قولي ، فإني قد اخبرته أنك أختي، إنه ما على الأرض مؤمن غيري وغيرك وإنك أختي فلا تكذبيني عنده[1]. فانطلق بها، فلما ذهب يتناولها أخذ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل فذهب يتناولها فأخذ مثلها أو أشدّ منها، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأرسل ثلاث مرات، فدعا أدنى حشمه فقال: إنك لم تأتني بإنسان ولكنك أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطها هاجر.

فلمّا دخلت عليه قام إليها، فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط الكافر. قال فغط حتى ركض برجله. قال: ثم قام إليها، قال: فقامت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليّ الكافر. قال: فغط حتى ركض برجله. قال أبو الزناد: وقال أبو سلمة عن أبي هريرة أنها قالت: اللهم إن يمت يقل هي قتلته، قال : فأرسل.

قال: فقال في الثالثة أو الرابعة: ما أرسلتم إليّ إلا شيطاناً، فارجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر. قال: فرجعت، فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة.

وكان إبراهيم عليه السلام من وقت أن ذهب بها إلى الملك قام يصلي لله عز وجل، أن يدفع عن أهله ويسأله ، وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء. وهكذا فعلت هي أيضا. فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوءها وصلاتها ودعت الله عز وجل بما تقدّم من الدعاء العظيم. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾

---

(١) قوله « هي أختي » أي في دين الله. وقوله «مؤمن غيري وغيرك » يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك.

(البقرة : ٤٥) فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام (ابن كثير، ١٩٩٦: ١٨٩-١٩٢)

ثم رجع خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام من بلاد مصر إلى أرض التيمن، وهي الأرض المقدّسة التي كان فيها، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل وصحبتهم هاجر القبطية المصرية. ثم نزح لوط بما له من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور، المعروف بغور زغر[١]، فنزل بمدينة سدوم[٢] وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان وكان أهلها أشراراً كفّاراً فجّاراً.

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام فأمره أن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً وبشره بأن هذه الأرض كلّها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض.

قالوا: ثم إن طائفة من الجبارين تسلّطوا على لوط عليه السلام فأسروه، وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل عليه السلام سار إليهم في ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً فاستنقذ لوطاً عليه السلام واسترجع أمواله، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل إلى شمالي دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة، وأظن مقام إبراهيم إنما سمي لأنه كان موقف جيش الخليل عليه السلام. والله أعلم. ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين ، واستقرّ ببلاده ـــ صلوات الله وسلامه عليه.

ثم هاجر خليل الرحمن إبراهيم بابنه إسماعيل ـــ عليهما السلام ـــ إلى جبال فاران وهي أرض الحرم مكة المكرمة. حكى البخاري ـــ رحمه الله ـــ عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت

---

(١) « غور زغر » هو مكان منخفض في موضع « زغر » بالأردن قرب البحر الميت.

(٢) « سدوم » هي قرية من قرى قوم لوط ، طان قاضيها يقال له سدوم.

Prince of Songkla University Pattani Campus

عبد دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء. فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء (ابن كثير، ١٩٩٦: ١٩٧)

ترك خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام أم إسماعيل وابنه إسماعيل ـــ عليهما السلام ـــ ، فقالت له هاجر: يا إبراهيم! أين تذهب وتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيها أحد ولا فيها زرع، آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم، قالت: إذن لا يضيعنا. فانطلق خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام حتى إذا كان عند الثنية استقبل البيت ورفع يديه ثم دعا بهذه الدعوة: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٣٧)

وبقي أم إسماعيل هنالك ترضع ولدها ـــ إسماعيل ـــ وتشرب من ذلك الماء حتى نفد عطشت وعطش ابنها فجعلت تنظر إليه تتلوى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف ذرعها، ثم سعت حتى جاورت الوادي ثم أتت المروة، فقامت عليها، ونظرت هل ترى فيها أحداً، فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مرات. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال بجناحه ـــ حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا. وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال البخاري ـــ رحمه الله ـــ : قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : ((يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ـــ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـــ لكانت زمزم عيناً معيّناً)) قال: فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: ((لا تخافي الضيعة فإن ها هنا

بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وأن الله لا يضيع أهله (ابن كثير، ١٩٩٦: ١٩٧ــ١٩٨).

وكان البيت مرتفعاً من الأرض، ثم تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريا فإذاهم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم ولكن لا حقّ لكم في الماء عندنا. قالوا: نعم. قال رسول الله ﷺ: ((فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحبّ الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم.

فلما شبّ الغلام ــ إسماعيل عليه السلام ــ وترعرع تعلّم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شبّ، فلما أدرك زوّجوه امرأة منهم. ثم ماتت أم إسماعيل عليه السلام، فجاء أبوه إبراهيم عليه السلام بعد ما تزوج يطالع تركته فلم يجد إسماعيل عليه السلام، فسأل امرأته عنه.

فقالت: خرج يبتغي لنا،

قال: ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم،

فقالت: نحن بشرّ، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه،

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيّر عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل عليه السلام فقال: هل جاءكم من أحد؟

قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته أنا في جهد وشدة.

قال : فهل أوصاك بشيء؟

قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك غيّر عتبة بابك،

قال : ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك فألحقي بأهلك، وطلّقها وتزوّج منهم أخرى، ولبث عنهم إبراهيم عليه السلام ما شاء الله.

Prince of Songkla University Pattani Campus

ثم أتاهم أبوهم إبراهيم عليه السلام بعد فلم يجد إسماعيل، فدخل على امرأته فسأل عنه فقالت: خرج يبتغي لنا،

قال : كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم،

فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عزّ وجلّ،

فقال: ما طعامكم؟

قالت : اللحم.

قال : فما شرابكم؟

قالت : الماء .

قال : ((**اللهم بارك لهم في اللحم والماء**)) وقال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومرّيه بثبت عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل عليه السلام فقال: هل أتاكم من أحد؟

قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير،

قال : فهل أوصاك بشيء؟

قالت: نعم وهو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك ،

قال : ذاك أبي ، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك. ثم لبث عنهم ماشاء الله.

ثم أتاه بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر. قال : فاصنع ما أمرك به ربك، قال: وتعينني؟ قال : وأعينك. قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً ـــ الكعبة ـــ وأشار إلى مكان البيت. فعند ذلك رفعا القواعد من البيت. (ابن كثير، ١٩٩٦: ١٩٨ـــ ٢٠٠)

Prince of Songkla University Pattani Campus

٣,٦ ــ بناء خليل الرحمن البيت العتيق

يقول الله تَبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (سورة الحج: ٢٦ــ٢٧). أمر الله تبارك وتعالى إبراهيم عليه السلام ببناء البيت الحرام ــ الكعبة المشرّفة ــ وبوأه الله مكانه أي أرشده إليه ودله عليه، وقيل إن الذي دلّه على موضع البيت هو جبريل عليه السلام، فسار إبراهيم عليه السلام إلى مكة المكرمة، فلما وصل إلى مكة وجد إسماعيل يُصلح نبلاً له وراء زمزم فقال له: يا إسماعيل إن الله قد أمرني أن أبني بيتًا، قال له إسماعيل: فأطع ربك، فقال له إبراهيم: قد أمرك أن تعينني على بنائه، قال: إذن أفعل، فقام إبراهيم إلى مكان البيت، فجعل يَبْني وإسماعيل يناوله الحجارة، وكلما أنهيا بناء صف منها ارتفع مقام إبراهيم به حتى يَبني الذي فوقه، وهكذا حتى تمت عمارتها. ومقام إبراهيم هو حَجَر كان يقف عليه إبراهيم عند بناء الكعبة وضعه له ابنه إسماعيل ليرتفع عليه كلما ارتفع البناء، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (سورة البقرة: ١٢٧ــ١٢٩) والمقصودُ أن إبراهيم الخليل بَنَى أشرفَ المساجد في أشرف البقاع في وادٍ غير ذي زرع، ودعا لأهلها بالبركة وأن يُرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار وأن يجعله الله حرمًا ءامنا. كذلك سأل إبراهيمُ عليه السلام

Prince of Songkla University Pattani Campus

الله أن يبعث فيهم رسولاً منهم أي من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويطهرهم. وقد استجاب الله تعالى دعوةَ نبيه إبراهيم فبعث في العرب وفي أشرف القبائل منهم رسولاً عظيمًا وهو نبيّنا محمد سيّد الأولين والآخرين. وعندما أكمل إبراهيم بناء الكعبة قال لابنه إسماعيل: إيتني بحجر حسنٍ أضعه على الركن فيكون للناس عَلمًا، فأتاه جبريل عليه السلام بالحجر الأسود فَأخذه وَوَضعه مَوضعه.

وأن الكعبة[1] هي أول بيت ومَسجد وُضع في هذه الأرض وآدم عليه السلام هو أول من بناه، وقد انهدم بطوفان نوح عليه السلام الذي عم كل الأرض، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٦ــ٩٧).

أي أوّل بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى .

وثبت في الصحيحين: ((إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة)) (البخاري رقم ٣١٨٩ ، ومسلم رقم ٢٤١٢)

والكعبة وسط المعمورة وفوقها إلى السماء السابعة البيت المعمور وهو بيت مشرَّف هو لأهل السماء الملائكة كالكعبة لأهل الأرض، كل يوم يدخله سبعون ألف ملك يصلون فيه ثم يخرجون ولا يعودون أبدًا. وقد ذكرنا في صفة خلق السموات: أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث لوسقط لسقط عليها وكذلك معابد السموات السبع كما قال بعض السلف: إن في كل سماء بيتا يعبد الله فيه أهل كل سماء وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض. (ابن كثير، ١٩٩٦:٢١٤)

---

(١) تنبيه : ليُعلم أن الحَجَر الأسود هو ياقوتة بيضاء من الجنة لكن لَمّا تمسح به المشركون صار أسودَ.

فلما بلغ إبراهيم القواعد وبنى الركن، قال إبراهيم لابنه إسماعيل: يا بنيّ اطلب لي حجراً حسناً أضعه ها هنا. قال: يا أبت إني كسلان تعب. قال : على ذلك فانطلق، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض يا قوته بيضاء مثل النغامة، وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن، فقال: يا أبت من جاءك بهذا؟ فقال إبراهيم : جاء به من هو أنشط منك. فبنيا وهما يدعوان الله " رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ " (ابن كثير، ١٩٩٦: ٢١٨)

وبعد أن فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت الحرام مع ابنه إسماعيل عليه السلام أمره الله أن يؤذّن في الناس بالحج فأذن ودعاهم إلى حج بيت الله الحرام، وروي أنه نادى: أيها الناس إن الله قد كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق، وخرج إبراهيم عليه السلام مع ولده إسماعيل وقاما بمناسك الحج، وروي أن جبريل هو الذي أرى إبراهيم كيف يحج. وقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن إبراهيم قام على الحجر فقال: يا أيها الناس إن الله فرض عليكم الحج فأسمعَ من كان في أصلاب الآباء وأرحام النساء ممن آمن وكتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة، فأجاب: لبيك اللّهم لبيك. حسّن ذلك الحافظ ابن حجر، وهذا الذي ثبت عن ابن عباس مما لا يقال بالرأي بل بالتوقيف.

٣,٧ ــ وفاة خليل الرحمن

قال ابن الأثير: قيل: لمّا أراد الله قبض روح إبراهيم أرسل إليه ملك الموت في صورة شيخ هرم، فرآه إبراهيم وهو يطعم الناس وهو شيخ كبير في الحرّ، فبعث إليه بحمار فركبه حتى أتاه، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد أن يدخلها فاه فيدخلها في عينه وأذنه ثم يدخلها فاه، فإذا دخلت جوفه خرجت من دبره، وكان إبراهيم سأل ربّه أن لا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأله الموت، فقال: يا شيخ ما لك تصنع هذا؟

قال: يا إبراهيم الكبر، قال: ابن كم أنت؟ فزاد على عمر إبراهيم سنتين، فقال إبراهيم: إنما بيني وبين أن أصير هكذا سنتان، اللهمّ اقبضني إليك! فقام الشيخ وقبض روحه ومات وهو ابن مائتي سنة (ابن الأثير، ١٩٩٤ : ١٠٠).

وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف، عن أخبار أهل الكتاب في صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخباراً مثيرة ـــ والله أعلم بصحتها ـــ. وقد قيل إنه مات فجأة، وكذلك داود وسليمان. والذي ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلا ف ذلك.

قبض الله نبيّه إبراهيم عليه السلام بمكان هجرته من أرض كنعان[1]، وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة[2]، ودفن مع سارة في مغارة عفرون الحيثي وعرف بالخليل لهذا العهد. ثم جعل الله في ذريته النبوة والكتاب آخر الدهر. (ابن خلدون، ١٩٩٩: ٣٩). وذكر في العقيدة الإسلامية وأسسها: ولمّا بلغ عمر إبراهيم عليه السلام (١٧٥) سنة ختم الله حياته في أرض فلسطين، ودفن في مدينة الخليل "حبرون وكان اسمها في الأصل قرية أربع"، في المغارة المقام عليها الآن مقام الخليل[3]، وتعرف بمغارة الأنبياء. (الميداني، ١٩٧٩ : ٤٣٠)

قالوا: ثمّ مرض إبراهيم عليه السلام، ومات عن مائة وخمس وسبعين، وقيل وتسعين سنة، ودفن في المغارة المذكورة التي كانت بحبرون الحيثي عند امرأته سارة التي في مزرعة عفرون الحيثي، وتولّى دفنه إسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد ورد ما يدلّ على أنه عاش مائتي سنة كما قاله ابن الكلبي.

فقال أبو حاتم ابن حبان في صحيحه: أنبأنا المفضل بن محمد الجندي بمكة، حدّثنا على بن زياد الخمي، حدّثنا أبو قرة، عن ابن جريج، عن يحيى بن سعيد عن

---

(١) لم يجر لوفاة إبراهيم عليه السلام ذكر في القرآن الكريم ولكن ذلك ورد في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين: في مدينة الخليل من أرض فلسطين.

(٢) قيل: تسعين سنة وقد ورد ما يدل على أنه عاش مائتي سنة كما قاله ابن الكلبي (ابن كثير، ١٩٩٦: ١٨٨، ٢٣٧).

(٣) المغارة المذكورة التي كانت بحبرون الحيثي عند امرأته سارة التي في مزرعة عفرون الحيثي (ابن كثير، ١٩٩٦ : ٢٣٧)

Prince of Songkla University Pattani Campus

سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: ((**اختتن إبراهيم بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة**)) (ابن حبان ٢٩/٨).

وقال محمد بن إسماعيل الحساني الواسطي: زاد في تفسير وكيع عنه فيما ذكره من الزيادات، حدّثنا أبو معاوية، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة ﷺ قال: كان إبراهيم أوّل من تسرول، وأوّل من فرق، وأوّل من استحدّ، وأوّل من اختتن بالقدوم، وهو ابن عشرين ومائة سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة، وأوّل من قرى الضيف، وأوّل من شاب. وقال مالك عن يحيى بن سعيد ابن المسيب قال: كان إبراهيم أوّل من أضاف الضيف، وأوّل الناس اختتن، وأوّل الناس قصّ شاربه، وأوّل الناس رأى الشيب، فقال: يا ربّ ماهذا؟ فقال الله تعالى: "وقار"، فقال: يا ربّزدني وقاراً.

وقبره وقبر ولده إسحاق في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حبرون، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم. وهذا متلقى بالتواتر أمة بعد أمة، جيلاً بعد جيل من زمن بني إسرائيل إلى زماننا هذا، أن قبره بالمربعة تحقيقاً. فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم. فينبغي للمسلم أن يراعي تلك المحلّة وأن يحترمها وأن تبجل وأن يجل أن يداس في أرجائها خشية أن يكون قبره أو أحد أولاد الأنبياء ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ تحتها.

وقال ابن عساكر: وجد عند قبر إبراهيم عليه السلام على حجر كتابة خلقة:

إلهي جهـــولاً أملـــــه ... يموت من جا أجلـــــه

ومن دنـــا من حتفـــه ... لم تغـــن عنـــه حيلـــه

وكيف يبقـــى آخـــراً ... من مات عنـــه أوّلـــه

والمـــرء لا يصحبـــــه ... في القـــبر إلا عملـــه

(ابن كثير، ١٩٩٦: ٢٣٩)

Prince of Songkla University Pattani Campus

٣,٨ ــ مكانة خليل الرحمن بعد وفاته

ثبت في الحديث أنه عليه السلام بعد وفاته رفع إلى السماء السابعة. وقيل في السماء السادسة. وقال ابن حجر القسقلاني: والراجح من الأقوال هو في السماء السابعة. قال البخاري رحمه الله: ((... **فأتينا السماء السابعة قيل: من هذا؟ قيل: جبريل. قيل: من معك؟ قيل: محمد. قيل: وقد أرسل إليه، مرحباً به ولنعم المجيء جاء. فأتيت على إبراهيم، فسلمت عليه. فقال: مرحباً بك**)) (البخاري رقم ٣٢٧)

وقال مسلم رحمه الله: ((ثم عرج إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، فقيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور)) (مسلم رقم ٢٣٤ ، ٢٣٨)

ومكانته في الآخرة أعدّ الله له قصراً من اللؤلؤ في الجنة، كما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((إن في الجنة قصراً ــ أحسبه قال من اللؤلؤ ــ ليس فيه فصم ولا وهن أعدّه الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلاً))

Prince of Songkla University Pattani Campus

٣,٩ ــ أولاد خليل الرحمن

جدول (٦): شجرة أولاد خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام

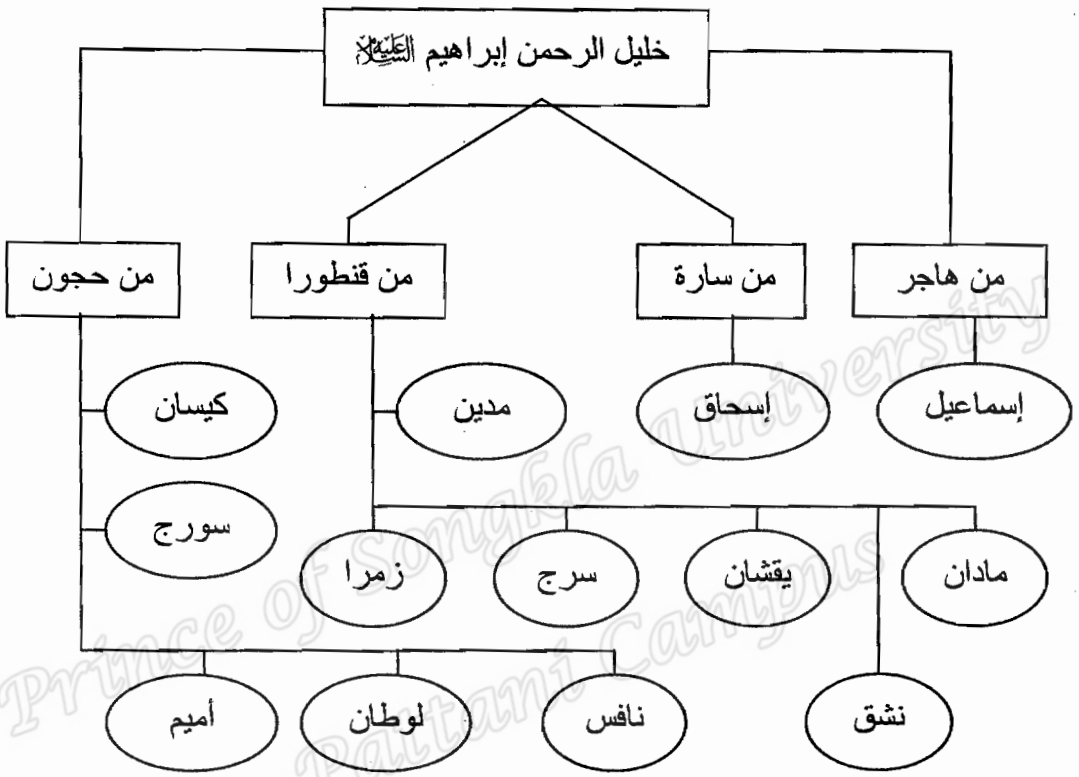

Prince of Songkla University Pattani Campus

وأوّل من ولد له: «إسماعيل عليه السلام » من هاجر القبطية المصرية، ثمّ ولد له « إسحاق عليه السلام » من سارة بنت عمّ الخليل، ثمّ تزوّج بعدها « قنطورا» بنت يقطن الكنعانية فولدت ستة أولاد هم: « مدين » و «زمران » و « سرج » و « يقشان » و « نشق » و «لم يسم السادس »[1]. ثمّ تزوّج بعدها « حجون » بنت أمين، فولدت له خمسة أولاد: « كيسان » و « سورج » و « أميم » و «لوطان » و « نافس ». (ابن كثير، ١٩٩٦ : ٢٤٠)

---

(١) قالوا: ثم تزوج إبراهيم عليه السلام «قنطورا» فولدت له زمران، ويقشان، ومادان، ومدين، وشياق، وشوخ. وذكروا ما ولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا (ابن كثير، ١٩٩٦ : ٢٣٧)